بـــلاغة الحِجَـــاج في النص الشعري

(قصيدة «أنا» لإيليا أبو ماضي نموذجاً)

إعـداد

د/ أشرف محمود عبدالهادي الدمهوجي

مدرس البلاغة والنقد

في كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالمنوفية

١٤٤٤ هـ- ٢٠٢٣م

بـــلاغة الحِجَـــاج في النص الشعري(قصيدة "أنا" لإيليا أبو ماضي نموذجًا)

أشرف محمود عبدالهادي الدمهوجي
قسم البلاغة والنقد /كلية اللغة العربية بالمنوفية/ جامعة الأزهر الشريف/ مصر
البريد الإليكتروني:
ashrafeldamhogy.lan@azhar.edu.edueg

ملخص البحث

هذه دراسة موجزة تكشف عن الأثر البلاغي للخطاب الحجاجي في النص الشعري، بغية توظيف مفاهيم وأدوات تحليلية ومنهجية جديدة من خلال قصيدة بعنوان "أنا"، وهي تحمل كثيرًا من الرموز الفلسفية والأهداف الاجتماعية، وقد استعمل "إيليا أبو ماضي" في تلك القصيدة الرائعة وسائل حِجاجية بلاغية مُتعدَّدة كالضمائر، والعطف، والتكرار، والتشبيه، والاستعارة، والكناية، والمحسنات البديعية، فضلا عن مسائل علم المعاني؛ من أجل إقناع المتلقي واستمالته لقبول وجهة النظر، فكان الهدف استخراج أهم المظاهر الحجاجية لهذا النص الأدبي، وتأكيد الطابع الحجاجي العام لهذه القصيدة(نصا، وعنونا، وحوارا ،وصورا بلاغية...)، فالعلاقة قوية جدا بين ما يهدف إليه الدرس البلاغي بوسائله وما يهدف إليه الحجاج من التأثير في المتلقي.

فكانت وظيفة الحجاج في القصيدة: الإبانة، وإقامة الدليل والبرهان، وإثبات ما تمس الحاجة إلىٰ إثباته، فالمجتمع الأمريكي الذي تسود فيه التفرقة العنصرية هو الذي أوحىٰ إلىٰ أبي ماضي بتحديد الصفات الإنسانية للرجل الذي ينبغي أن يُحترم، وقد اتسم أسلوب الشاعر بسهولة الألفاظ، ووضوح العبارة، واستخدام الصور والمحسنات من غير تكلف، فأبدع في قصيدته التي أثبتت ببراعة العلاقة القوية بين البلاغة العربية والحجاج.

وأثبتت الدراسة أن النظرية الحجاجية لا تقتصر علىٰ التحليل في الأقوال والجمل، وإنما تشمل النصوص الأدبية، والدينية، والسياسية، والاقتصادية، وغيرها؛ مما أدىٰ إلىٰ تطورها وتوسيع مجال تطبيقها، ومن ثمَّ تبين أن النص الشعري الحجاجي نص متناغم مترابط متماسك، وكما يكون الحجاج في النثر، فإنه يكون أيضا في الشعر، فهو قادر علىٰ إقناع المتلقي بالحجة والعاطفة، ومن هنا ظهر جليا أن البلاغة تمتلك دلالة مزدوجة: فهي أداة محاججة، ووسيلة تفكير، وتقنية للإقناع، أضف إلىٰ ذلك كونها فن للقول، وجودة الحديث.

الكلمات المفتاحية:

(البلاغة العربية – الحجاج –النص الشعري–التأثير والإقناع–الخطاب الحجاجي).

❁❁❁❁❁

The eloquence of pilgrims in the poetic text (the poem "I am" by Elia Abu Madi as an example)

Ashraf Mahmoud Abdel-Hadi Al-Damhoji
Department of Rhetoric and Criticism / Faculty of Arabic Language in Menoufia / Al-Azhar University / Egypt
E- mail : ashrafeldamhogy.lan@azhar.edu.edueg

Abstract:

This is a brief study that reveals the rhetorical impact of the argumentative discourse on the poetic text, in order to employ new concepts, analytical and methodological tools through a poem entitled "I", which carries many philosophical symbols and social goals. In this wonderful poem, Elia Abu Madi used rhetorical argumentative means Multiple pronouns, sympathy, repetition, analogy, metaphor, metaphor, and intuitive improvements, as well as issues of semantics; In order to convince the recipient and get him to accept the point of view, the aim was to extract the most important argumentative aspects of this literary text, and to confirm the general argumentative nature of this poem (text, title, dialogue, rhetorical images...).

The relationship is very strong between what the rhetorical lesson aims at by its means and what the pilgrims aim at influencing the recipient.

The function of the pilgrims in the poem was: to make clear, to establish evidence and proof, and to prove what is urgently needed to be proven. The American society, in which racial discrimination prevails, was the one that inspired Abi Madi to define the human qualities of the man who should be respected. The poet's style was characterized by ease of words and clarity of expression And the use of images and improvements without affectation, so he excelled in his poem, which brilliantly demonstrated the strong relationship between Arabic rhetoric and pilgrims.

The study proved that the argumentative theory is not limited to analysis in sayings and sentences but rather includes literary, religious, political, economic, and other texts. Which led to its

development and expansion of its field of application. Hence, it became clear that the argumentative poetic text is a harmonious, coherent, coherent text, and just as arguments are in prose, it is also in poetry, as it is able to convince the recipient of argument and emotion, and from here it became clear that rhetoric possesses a double significance: it is an argumentation tool, a means of thinking, and a technique For persuasion, add to that the art of speaking, and the quality of speech.

Keywords:

Arabic Rhetoric - Al-Hajjaj - Poetic Text - Influence and Persuasion - Al-Hajjaj Discourse

المقدمـــة

الحمد لله الذي أنزل الفرقان، وجمَّلَ اللسان بالتبيان، واصطفىٰ لدعوته النبيّ ﷺ العدنان، وذكّاه بالحجة والبرهان، وصلّ اللهمَّ علىٰ خاتم أنبيائك ورسلك، وآل بيته، وصحابته، وأتباعه إلىٰ يوم الدين بإحسان، وبعد:

فإن الدراسات البلاغية في الشعر العربي لها الأثر العظيم؛ حيث تحمل ألوانا شتىٰ من الخطاب البلاغي الإقناعي، فهناك خطابٌ للتعليم، وآخر للتوجيه أو تصحيح الأخطاء والمعتقدات علىٰ ما ظهر منها صراحة، أو خفِيَ ودلّ عليه الحال والمقام، وهو أشد ما يُميز الحجاج البلاغي، والخطاب الفعّال بوظيفته قائم علىٰ طرائق الإبانة، ومناهج الاستدلال يعتمد في تكوينه علىٰ أساليب عالية من الإقناع النافذ في العقول، المدعم بعناصر ملائمة لأحوال المخاطبين في كثيرٍ من الأحايين، والأسلوب الخطابي، تبرز فيه بوضوح: قوة المعاني والألفاظ، وقوة الحجة والبرهان، وقوة العقل الخصيب.

ومن ثم كان هذا البحث الموسوم بـ "بلاغة الحجاج في النص الشعري، قصيدة "أنا" لإيليا أبو ماضي نموذجا" التي تعد تجربة صادقة واضحة عاشها الشاعر؛حيث كشفت عن بناء الخطاب الحجاجي الشعري، ومكوناته، وآلياته عبر أساليب البلاغة التي تحاور النصوص وتستنطق دلالاتها.

سبب اختيار القصيدة:

كانت هذه القصيدة؛ لما فيها من الإبداع، والتأثير في كل مناهجه، وعناصره، وخصائصه، وسماته خاصة سمة الإيجاز في صياغته، وحسن التأليف، وبراعة البيان، وجمال التصوير، وحسن العبارة، وملاءمة الكلام بعضه لبعض، وحسن قبوله، وإنفاذه في العقل والوجدان، ومخالطة القلب مع ما تمتاز به من آليات الحجاج التي برزت بقوة في تلك القصيدة.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

دفعتني أسباب كثيرة لاختيار هذه الدراسة، أهمها:

١ ـ الكشف عن بناء الخطاب الشعري الحجاجي وآلياته عبر أساليب البلاغة التي تبرز الدلالات المتنوعة وتداعياتها المختلفة لهذه القصيدة، وكيفية توظيفها في عملية الحجاج.

٢- إثبات أنّ الاحتجاج ضرب من ضروب البلاغة، ووجه من الوجوه التي تجري البلاغة فيها.

٣ – إبراز العلاقة بين الحجاج والبلاغة في رسم أبعاد الشخصيات، وسلوكها، وانفعالاتها، ومواقفها الدفاعية عن نفسها بالحجج والبراهين من خلال الجانب الشعري.

٤ ـ إثراء المكتبة البلاغية بالدراسات التحليلية لهذا اللون من الدراسة في الشعر العربي.

هدف الدراسة:

الكشف عن طبيعة العلاقة بين البلاغة العربية والحجاج، وتقنياته، وآلياته متمثلة في الشعر وإمكاناته الواسعة، فتضيف له قوة إلىٰ قوته، وتسهم في إقناع المتلقي مع استثمار التراث اللغوي والبلاغي.

منهج البحث وطريقته:

حرص البحث أن يسلك المنهج الحجاجي القائم علىٰ التذوق والإقناع من خلال آليات الحجاج محاولا الكشف عن الأثر البلاغي لأساليب البلاغة العربية، ومستحضرا الغرض من سياقها، ثم تتبع أدوات البلاغة وأساليبها في القصيدة تحليلا وتطبيقا.

الدراسات السابقة:

وجدت دراسة في مجلة علوم اللغة العربية وآدابها لهذه القصيدة تحت عنوان(الاتساق المعجمي في قصيدة"أنا" للشاعر إيليا أبو ماضي أنموذجا) المجلد١٤/ العدد/ ١/ تاريخ النشر ١٥/ ٣/ ٢٠٢٢م، بقسم اللغة والأدب العربي، جامعة أحمد بن بلة/ جامعة وهران(الجزائر)، ولم تعن هذه الدراسة بالجانب البلاغي أو الجانب الحجاجي، بل

اهتمت برصد أهم مظاهرالاتساق المعجمي، وهي بعيدة كل البعد عن دراستنا وما نحن بصدده.

خطة البحث:

اقتضت خطة البحث أن يتكون من مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، تتبعهما خاتمة، ثم فهارس علمية.

أما المقدمة، ففيها الحديث عن الموضوع وأهميته، وسبب اختياره، والمنهج المتبع، وخطة الدراسة.

وأما التمهيد: (أضواء علىٰ العنوان)، وفيه محوران:

الأول: مفهوم الحجاج بين العرب والغرب، وعناصره، ودواعيه،

الثاني: التعريف بالشاعر.

ثم جاءت الدراسة في مبحثين:

المبحث الأول: تحليل الأساليب البلاغية والروابط الحجاجية في القصيدة.

المبحث الثاني: الأساليب البلاغية وعلاقتها بالروابط الحجاجية في القصيدة.

ثم الخاتمة وبها أهم نتائج الدراسة، ثم الفهارس العلمية.

وبعد، فإني آمل أن ينال هذا البحث القبول والاستحسان، وما الكمال إلا لله وحده، وحسبي أنني أخلصت الجهد، وبذلت المستطاع، والله أسأل أن يمنحني الصواب والرشاد، ويلهمني الحكمة وفصل الخطاب، والله الموفق إلىٰ سواء السبيل.

التمهيد (الحجاج مفهومه، عناصره ودواعيه، ترجمة الشاعر)

المحور الأول: مفهوم الحجاج في اللغة والاصطلاح:

لا تكاد تخلو كتب التراث العربي الإسلامي وغيرها من تداول مصطلح "الحجاج"، أو "الاحتجاج، أو "المحاجّة" في عدة مجالات، وفي عدة علوم، وخصوصا في المسائل ذات الطابع الفكري والفلسفي.

والحِجَاج في اللغة: له معانٍ كثيرةٌ في الاستعمال العربي يدور معظمها حول معنىٰ: القصد[1]، ويتفرع منها الغلبة والظفر عند الخصومة، والسّبر ومعرفة القدر، وما دوفع به الخصم، والجدل والتخاصم، والدليل والبرهان، والاحتجاج والاستدلال، واتخاذ الحجة.

جاء في اللسان:(رجل مِحْجاجٌ، أَي: جَدِلٌ، والتَّحاجُّ التَّخاصُم، وجمع الحُجَّةِ حُجَجٌ وحِجاجٌ) [2]، والحُجّة: مَا دلّ بِهِ عَلىٰ صِحّة الدّعوَىٰ» [3]، سواء أكانت صحيحة في نفسها أم في اعتقاد قائلها، وأساس الحجة أن تُبنىٰ علىٰ استدلال صحيح لا شائبة فيه ولا شك.

الحجاج في الاصطلاح: عملية عقلية ذات دوافع مؤثرة، تقدم بيانًا واضحًا، وبرهانًا صحيحًا، يقف أمامه الخصم عاجزًا، وهو في اصطلاح علماء البيان: عبارة عن دلالات لمفاهيم مشتقة منه مثل: الحجة والمحاجة والاحتجاج[4] لا تعدو

---

(١) ينظر: المشتقات ودلالاتها في اللغة العربية –دراسة دلالية في القرآن الكريم، د/ محسن محمد قطب، ص١٢٤، ط/ مؤسسة حورس الدولية- الإسكندرية، ط/ ٢، ١٠١٠م.

(٢) لسان العرب: مادة(حجج).

(٣)التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني(٨١٦هـ)، ص١١٢، ط/ دار الكتاب العرب- بيروت- ١٤٠٥هـ، ط/ ١، تح: إبراهيم الأبياري.

(٤)ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته [الحجاج حدود وتعريفات]، ١/ ٣من المقدمة، تقديم: د/ حافظ إسماعيل علوي، ط/ عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، ط/ ١، ١٤٣١ه- ٢٠١٠م.

اللمحة والإشارة، ولا يقف عندها الباحثون علىٰ ما يشفي الغلة، ولقد اتخذت أشكالا عدة، منها ما ورد في آراء النقاد القدامىٰ والعرب الخلص لمعنىٰ البلاغة، أو ما جاء مقترنا بالاستشهاد، ومنها ما حمل كلمة الاحتجاج موصوفًا بالعقلي تارة، وبالنظري تارة أخري، ومنها ما جاء بلفظ المحاجة أو إلجام الخصم بالحجة[1]، ومما ورد تفسيرا لمعنىٰ البلاغة بلفظ الحجة أو الحجج أو الاحتجاج: ما أورده ابن رشيق(ت٤٥٦هـ) في كتاب[العمدة] تعريفات للبلاغة: « قِيلَ لخَالد بن صَفْوان: مَا البَلاغَةُ؟ قال: إصَابَةُ المَعنَىٰ، والقَصْدُ إلىٰ الحُجّة »[2]، وهناك عبارة مشهورة لابن المقفع (ت١٤٢هـ) في الاحتجاج أوردها الجاحظ (ت٢٥٥هـ) وغيره، فذكر المعاني التي تجري فيها وجوه البلاغة، وذكر أن الاحتجاج من تلك الوجوه، كما عبَّر: « البلاغة: اسمٌ جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة...، ومنها ما يكون في الاحتجاج...، ومنها ما يكون شعرا»[3].وللجاحظ مقالة في كتابه المعروف برسائل الجاحظ يذكر فيها أهم أنواع النشاط الإنساني لمهمات البيان: « وأما فوك، فهو الذي لا ندري: أي الذي تتفوه به أحسن، وأي الذي يبدو منه أجمل: الحديث أم الشعر، أم الاحتجاج، أم الأمر والنهي، أم التعليم والوصف؟[4]»، وهذا وعيٌ من الجاحظ يدلّ علىٰ ارتقائه واقتداره في التمييز بين أجناس الكلام، لكنه لم يبرز لنا

(١)- للمزيد ينظر: بلاغة الحجاج النبوي في صحيح مسلم (رسالة دكتوراه) مقدمة من الباحث / عبدالمحسن محمود منصور ، بكلية اللغة العربية بالمنوفية/ ٢٠١٤م، ص١١وما بعدها.

(٢)العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق(ت٤٥٦هـ)، ١/ ٢٤٥، ط/ دار الجيل، بيروت –لبنان، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٣)البيان والتبيين، ١/ ١١٥ دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ، وينظر: العمدة١/ ٢٤٣.

(٤) رسائل الجاحظ، ١/ ١٨١ تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.

الاحتجاج من أي أنواع الكلام، غير إشراكه بين الحديث والشعر، ولعله يقصد بهذا الجمع الخطاب الحجاجي الإقناعي.

ويكفي أن الاحتجاج أسلوب من أساليب الكلام، ووجه من الوجوه التي تجري معاني البلاغة فيها، لكن عامة تلك الوجوه الحديث فيها بالوحي والإشارة، وهذا ما يوافق نظرية الحجاج الحديثة عند الغرب، علىٰ أنّ نظرية الحجاج تسمىٰ في نفس الوقت: البلاغة الجديدة[1].

وتلك محاولات ناقدة تكشف عن إحكام المتكلم البليغ في كلامه وحسن تناوله، وإجادة صياغته، وصفاء تراكيبه لأعلىٰ منازل البلاغة العالية التي تستحق وصف البلاغة، فمتىٰ أصاب البليغ معناه وقَصَد إلىٰ حُجّته، فتلك البلاغة، ومتىٰ أوجز في استحكام حججه ووقف علىٰ القدر المطلوب منها، فهو عين المقصود؛ فالاحتجاج ضرب من ضروب البلاغة العالية.

الحجاج بين العرب والغرب: من خلال ما سبق ظهر جليا مفهوم الحجاج في التراث العربي ، أما عند الغرب، فمفهوم الحجاج تأصل من قبل مدرستين: المدرسة البلجيكية، وتتمثل في آراء (بيرلمان) وتلميذه (مايير) في الحجاج، والمدرسة الفرنسية، وتتمثل في آراء (ديكرو) الذي حصر الحجاج في بنية اللغة، وعليه يمكن القول: إن الغربيين تمسكوا بالإرث الأرسطي تمسكا واضحا إلىٰ درجة يمكننا أن ننعتهم بأصحاب نظريات تجديدية لما كان موجودا، أو بالأحرىٰ بعثا للقديم في ثوب جديد، وعموما إن مسألة الحجاج عند الغربيين تختلف حقيقة خصائصها عند العرب؛ لأن للعرب فكرهم الحجاجي الخالص والخاص المميز لثقافتهم ودينهم الإسلامي الحنيف.

عناصر الحجاج ودواعيه: الحجاج أسلوب يعتمد علىٰ الأدلة الدامغة، والبراهين الصحيحة، والحجج القوية، ولا يستحسن أن ينازع في الحجة بعد

(١) ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته، ١/ ١ من المقدمة.

وضوحها، والبرهان بعد صحته، يؤكد هذا كلام الخليفة المأمون: «إذا وَضُحَتْ الحُجَّةُ، ثَقُل عَلَيَّ سَمَاعُ المُنازعَةِ فِيهَا» (١).

وتتعدد غاياته في الكلام بحسب المقام، فتارة يكون الحجاج غايته الإقناع، ويعد أهمّ عناصره، والاستدلال الصحيح، والنفي والإثبات، والتوكيد في المحاجة من أهم ما يمّيزه من غيره من أساليب الكلام.

وللحجاج أنواع كثيرة، فيدخل في كل أنواع النشاطات الإنسانية من علوم وفنون ومعارف، ويرتبط بعلوم النظر مثل: الخطاب (البلاغة)، والجدل، وعلم النفس، والفلسفة، فيعد أوثق من غيرها من العلوم الأخرىٰ.

وبهذا يتبيّن أنّ عناصر الحجاج تتمثل في: الإقناع، والاستدلال، والنفي والإثبات، والتوكيد، والتقرير، والمعارضة أو الاعتراض، والسؤال، والقياس. . . إلخ، أعني به القياس التمثيلي لا القياس المنطقي(٢).

أما عن دواعي الحِجاج فتتمثل في الآتي: حجاج لدفع الإنكار، وحجاج للرد علىٰ سؤال، وحجاج لدفع التوهم، وحجاج لتصحيح مفهوم، وحجاج تعليمي توجيهي(٣) .

---

(١) مجمع البلاغة، للراغب الأصفهاني، ١/ ١٣٥، ط/ مكتبة الأقصىٰ- عمان-الأردن، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، تح: د/ عمر عبد الرحمن الساريس.

(٢) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية / ط/ الأولىٰ، ص٩، وما بعدها، ومعاني ألفاظ الحجاج في القرآن الكريم وسياقاتها المختلفة، ص٩ وما بعدها. وأنماط الجملة الشرطية في الأحاديث النبوية- صحيح البخاري نموذجًا، أ/ بو عبد الله السعيد، ص٢، رسالة(ماجستير)، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري - الجزائر، ٢٠١٢م.

(٣)-ينظر: بلاغة الحجاج النبوي في صحيح مسلم (رسالة دكتوراه) مقدمة من الباحث / عبدالمحسن محمود منصور ، بكلية اللغة العربية بالمنوفية/ ٢٠١٤م، ص٢٠وما بعدها.

المحور الثاني: ترجمة الشاعر: إيلّيا أَبُو ماضي (١٣٠٦ه - ١٣٧٧هـ = ١٨٨٩م - ١٩٥٧م):

إيليا بن ضاهر أبي ماضي: من كبار شعراء المهجر، ومن أعضاء (الرابطة القلمية) فيه، ولد في قرية (المحيدثة) بلبنان، وسكن الإسكندرية (سنة ١٩٠٠م) يبيع السجائر، وأولع بالأدب والشعر حفظا ومطالعة ونظما، وهاجر إلىٰ أميركا (١٩١١م)، فاستقر في (سنسناتي) خمسة أعوام، وانتقل إلىٰ نيويورك (١٩١٦م)، فعمل في جريدة (مرآة الغرب)، ثم أصدر جريدة (السمير) أسبوعية (سنة ١٩٢٩م)، فـ يومية في بروكلن إلىٰ أن توفي بها.

فلسفته: إيليا أبو ماضي، هو الشاعر الفيلسوف، كان ذا رؤيةٍ فلسفية لكل شيء، فله في الموت فلسفة، وفي الكون والوجود، وفي السياسة، وفي المجتمع، وفي الحب عادىٰ التعصب والطائفية ونبذها في قصائده.

أهم العوامل المؤثرة في شعر أبي ماضي:

أحاطته الطبيعة في طفولته، وكانت قرية المحيدثة تحاصر إيليا أبا ماضي بأشكال الجمال الأخضر والجداول المغردة للجمال، فتعلم حب الطبيعة وتعلق بمناجاتها، وكان فقيرا، فنشأته في قسوة الفقر جعلت منه رسولاً للفقراء، فكتب دومًا عن المساواة الاجتماعية، وكلنا من تراب ولا فرق بين غني وفقير.

وأما عن الهجرة والاغتراب، فكان التشرد في الغربة له تأثير كبير في اتجاه أبي ماضي، ومن التشرد تعلم الوفاء للوطن، فأغزر في الشوق إليه والعناية بطيفه الباقي في قلبه، وأما عن الاختلاط بالنخب، ففي المهجر كان منغمسًا في علاقته برواد النهضة العربية وقادة الفكر التحرري الأدبي، فأفاد منهم، وبنىٰ منهجه الشعري وأسلوبه الأدبي.

مسيرته الأدبية:

أصدر أبو ماضي في مصر أول دواوينه الشعرية عام ١٩١١م، بعنوان "تذكار الماضي"، وكان يبلغ من العمر ٢٢ عامًا، شعره السياسي والوطني جعله عرضةً

لمضايقات السلطة الرسمية، فهاجر عام ١٩١٢م إلىٰ أمريكا الشمالية، وصل أولاً إلىٰ مدينة سينسيناتي، وهناك عمل مع أخيه مراد في التجارة، وتنقل بعدها في الولايات المتحدة إلىٰ أن استقر في مدينة نيويورك عام ١٩١٦م، وهناك عمل نائبًا لتحرير جريدة مرآة الغرب وتزوج من ابنة مالكها السيدة "دورا نجيب دياب"، وأنجبت له أربعة أولاد.

تعرف إلىٰ عظماء القلم في المهجر، فأسس مع جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة الرابطة القلمية، التي كانت أبرز مقومات الأدب العربي الحديث، وتعتبر هذه الرابطة أهم العوامل التي ساعدت أبا ماضي علىٰ نشر فلسفته الشعرية.

أهم الأعمال: تفرغ إيليا أبو ماضي للأدب والصحافة، وأصدر عدة دواوين رسمت اتجاهه الفلسفي والفكري أهمها:

- **"تذكار الماضي" (الإسكندرية ١٩١١م)**: تناول موضوعات مختلفة أبرزها الظلم، عرض فيها بالشعر الظلم الذي يمارسه الحاكم علىٰ المحكوم، مهاجمًا الطغيان العثماني ضد بلاده. **"إيليا أبو ماضي"**
- **(نيويورك ١٩١٨م)**: كتب مقدمته جبران خليل جبران، جمع فيه إيليا الحب، والتأمل والفلسفة، وموضوعات اجتماعية، وقضايا وطنية كل ذلك في إطار رومانسي حالم أحيانًا، وثائر عنيف أحيانًا أخرىٰ، يكرر شاعرنا فيه تغنيه بجمال الطبيعة.
- **"الجداول"** (نيويورك ١٩٢٧م): كتب مقدمته ميخائيل نعيمه.
- **"الخمائل" (نيويورك ١٩٤٠م)**: من أكثر دواوين أبي ماضي شهرةً ونجاحًا، وفيه اكتمال نضوج إيليا أدبيًا، جعله شعر التناقضات، ففيه الجسد والروح، والثورة وطلب السلام، والاعتراف بالواقع ورسم الخيال.
- **"تبر وتراب"، "الغابة المفقودة"**[1].

(١)- ينظر: الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي ٢/ ٣٥، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م.

المبحث الأول

(تحليل الأساليب البلاغية والروابط الحجاجية في القصيدة)

أولا: القصيـــــــــــدة

حُـــرٌ ومـــذهبُ كـــلُّ حـــرٍ مـــذْهبي ... مـــا كنـــتُ بِالغَـــاوي ولا المُتَعَصِّـــبِ

إنِّـــي لأغْضَـــبُ للكـــريم ينُوشُـــهُ ... مَـــن دُونَـــهُ وَأَلُـــومُ مَـــنْ لَـــمْ يَغْضَـــبِ

وَأُحِـــبُّ كُـــلَّ مُهَـــذَّبٍ لـــوْ أَنَّـــه ... خَصْـــمي وَأَرحـــمُ كُـــلَّ غَيـــرِ مُهَـــذَّبٍ

يَـــأْبَىٰ فُـــؤَادي أنْ يَمِيـــلَ إلَـــىٰ الأَذَىٰ ... حُـــبُّ الأذيـــةِ مـــن طبـــاعِ العَقْـــرَبِ

لِـــيْ أَنْ أَرُدَّ مَسَـــاءَةً بِمَسَـــاءَةٍ ... لَـــوْ أَنَّنِـــي أَرْضَـــىٰ بِبَـــرْقٍ خُلَّـــبِ

حَسْـــبُ المُسِـــيءِ شُـــعُورُهُ وَمَقَالُـــهُ ... فِـــي نَفْسِـــهِ: يَـــا لَيْتَنِـــي لَـــمْ أُذْنِـــبِ

أَنَـــا لا تُغَشِّـــني الطَّيَـــالِسُ والحُلَـــىٰ ... كـــمْ فِـــي الطَّيَـــالِسِ مِـــنْ سَـــقِيمٍ أَجْـــرَبِ

عَينَـــاكَ مِـــنْ أَثْوَابِـــهِ فِـــي جَنَّـــةٍ ... وَيَـــدَاكَ مِـــنْ أَخْلَاقِـــهِ فِـــي سَبْسَـــبِ

وَإِذَا بَصُـــرْتَ بِـــهِ بَصُـــرْتَ بِأَشْـــمُطِ ... وَإِذَا تُحَدِّثَـــهُ تَكَشَّـــفَ عَـــنْ صَـــبِي

إِنَّـــيْ إِذَا نَـــزَلَ الَـــبلاءُ بِصَـــاحِبِيْ ... دَافَعْـــتُ عَنْـــهُ بِنَاجِـــذِي وَبِمِخْلَبِـــي

وَشَـــدَدْتُ سَـــاعِدَهُ الضَـــعيفَ بسَـــاعِدِي ... وســـترتُ منكبَـــهُ العَـــريّ بِمنْكَبِـــي

وَأَرَىٰ مَسَـــاوِئَهُ كَـــأَنِّي لا أَرَىٰ ... وَأَرَىٰ مَحَاسِـــنَهُ وَإِنْ لَـــمْ تُكْتَـــبِ

وَأَلُـــومُ نَفْسِـــي قَبْلَـــهُ إِنْ أَخْطَـــأْ ... تُ وَإِذَا أَسَـــاءَ إِلَـــيَّ لَـــمْ أَتَعَتَّـــبِ

مُتَقَـــرِّبٌ مِـــنْ صَـــاحِبِي فَـــإِذَا مَشَـــتْ ... فِـــيْ عَطْفِـــهِ الْغَلْـــوَاءُ لَـــمْ أَتَقَـــرَّبِ

أَنَـــا مِـــنْ ضَـــمِيري سَـــاكِنٌ فِي مِعْقَـــلِ ... أَنَـــا مِـــنْ خِلَالِـــي سَـــائِرٌ فِي مَوْكِـــبِ

فَـــإِذَا رَآنِـــيْ ذُو الغَبَـــاوَةِ دُوْنَـــهُ ... فَكَمَـــا تَـــرَىٰ فِـــيْ الْمَـــاءِ ظَـــلَّ الْكَوْكَـــبِ

ثانيا: مناسبة القصيدة

عايش الشاعر المجتمع الأمريكي حين كانت العنصرية علىٰ أشدها، ورأىٰ كيف أن الرجل الأبيض يُميَّز، ويُفضَّل علىٰ الرجل الأسود، لا لشيء إلا للونه، وهو ما يُعرف بالعنصرية، فبيَّن أنَّ الرجل الذي يوصف بكلمة رجل يحب أن يتسم بصفات أخرىٰ غير اللون، فلا فرق بين الأسود والأبيض، فالإنسان المهذب من منظور إيليا هو من استجمع صفات حسنة من الصدق والأمانة والوفاء، وأدب القول، والمعاملة الحسنة.

ثالثا: أفكار القصيدة

تناول الشاعر في هذه القصيدة صفات الرجل المهذب: فذكر أنه إنسان لا يتعصب لرأيه، ولا يضل غيره، لا يعيب الشرفاء الكرماء، محب للمهذبين غير كاره لغيرهم، لا يؤذي غيره، لا يرد الإساءة بمثلها، لا ينخدع بالمظاهر أو السن، فقد يكون كبيرا في السنَّ وعقله عقل طفل، والرجل المهذب محافظ علىٰ الصديق يستر عيوبه عن أعين الناس، ويكون له ناصحا، ويضحي من أجله.

رابعا: بناء القصيدة

يتشكل بناء القصيدة من أربع أفكار حجاجية، الفكرة الأولىٰ: الافتخار بالهوية العربية، وتتكون من أربعة أبيات توضح صفات الرجل المهذب، والفكرة الثانية: التعريض بالهوية الغربية والمجتمع الأمريكي، فالرجل الفطن لا تخدعه المظاهر، وتتكون من خمسة أبيات، والفكرة الثالثة: التضحية من أجل الأصدقاء، وتتكون من خمسة أبيات، والفكرة الرابعة: فخر واعتزاز بالنفس ختمت بها القصيدة، وتتكون من بيتين، ومن ثمَّ جاءت القصيدة مكونة من ستة عشر بيتا قالها "إيليا" في رسم صفات الرجل المثالي، والحديث عن التفرقة العنصرية، وهي علىٰ قصرها ثَريَّة من حيث معانيها وألفاظها مهمة من حيث بنيتها الحجاجية.

خامسا: تحليل القصيدة

الفكرة الأولى: الافتخار بالهوية العربية (بيان صفات الرجل المهذب):

حُـــرٌ ومـــذهبُ كـــلُّ حـــرٍ مـــذْهبي ... مـا كنـتُ بِالغَـاوي ولا المُتَعَصِّـبِ[1]

إنِّـــي لأغْضَـــبُ للكـــريم ينُوشُـــهُ ... مَـن دُونَـهُ وَأَلُـومُ مَـنْ لَـمْ يَغْضَـبِ[2]

وَأُحِـــبُّ كُـــلَّ مُهَـــذَّبٍ لـــوْ أَنَّـــه ... خَصْـمي وَأَرحـمُ كُـلَّ غَيـرِ مُهَـذَّبٍ[3]

يَـــأْبَىٰ فـــؤادي أن يميـــل إلـــىٰ الأَذىٰ ... حـبُ الأذيـةِ مـن طبـاعِ العَقْـرَبِ[4]

يتناول المقطع الأول افتخار الشاعر بنفسه وبأصوله التي تمثل موقفا من الهوية الأصلية المتميزة ثقافيا وعرقيا عن الهوية الغربية، في حين يمثل المقطع الثاني طعنا في الهوية الغربية، وهذه الصفات تعبر عن تصور ذهني مرتبط ارتباطا وثيقا بنظام اللغة العربية، والتجربة الحياتية للشاعر التي لا تخرج عن النظم الاجتماعية والثقافية المتعارف عليها في المجتمع العربي، وهذا ما يهيئ المتلقي لتقبل تلك الصفات، فيتدرج الشاعر وفق سلم حجاجي في التعبير عن هذه الصفات، إضافة إلىٰ قدرته اللغوية والثقافية وتجربته الحياتية، ثم العوامل التي تحكم المجتمع

---

(١)- حر: طليق، الحاء والراء في المضاعف له أصلان: فالأول، وهو المراد: ما خالف العبودية وبرئ من العيب والنقص، يقال هو حر بين الحرورية والحرية (مقاييس اللغة: مادة حرّ)، مذهب: طريق، الغاوي: الضال، المتعصب: المتشدد.

(٢)- ينوشه: يصيبه بالسوء، النون والواو والشين أصل صحيح يدل علىٰ تناول الشيء، ونشته نوشا، وتناوشت: تناولت (مقاييس اللغة: مادة نوش)، دونه: أقل منه، ألوم: أعتب.

(٣)- مهذب: وقور مؤدب يقدر الآخرين: "الهاء والذال والباء: كلمة تدل علىٰ تنقية شيء مما يعيبه"، خصمي: عدوي، أرحم: أشفق عليه، غير مهذب: غير مؤدب وغير محترم(مقاييس اللغة: مادة: هذّب).

(٤)- يأبىٰ: يرفض،: "الهمزة والباء والياء يدل علىٰ الامتناع. أبيت الشيء آباه، وقوم أبيون وأباة" (مقاييس اللغة: مادة: أبىٰ) الفؤاد: القلب، يميل: يجنح، الأذىٰ: الضرر، طباع: صفات.

بأسره حتىٰ تفسر تلك الصفات تفسيرا صحيحا، ومن ثمَّ الاقتناع بالحُجة المُقَدَّمة مستخدما أساليب البلاغة في التعبير عن تجربته:

حُـرٌ ومـذهبُ كـلُّ حـرٍ مـذْهبي ... مـا كنـتُ بِالغَـاوي ولا المُتَعَصِّـبِ

استهل الشاعر القصيدة بكلمة (حر)، والمقدمة أو الاستهلال في أي خطاب يعد المفتاح للبرهان علىٰ صدق الدعوىٰ، والحكم بسلامة المنطق الذي يستدعيه المحاجج، وقد استهل الشاعر النص بحسن الابتداء المبني علىٰ التشويق حاذفا المسند إليه، وهذا أسلوب بلاغي (الإيجاز) يأتي لخدمة جوانب لغوية أو بلاغية وحجاجية؛ تنبيها للأفهام، وغموضا يحرك القلوب قبل العقول، وكأنه يحرص علىٰ أن يقذف إليك الخبر بسرعة؛ لينبه السامعين إلىٰ المطلوب من النص من أول كلمة في القصيدة، وهي الحرية الحقة التي ينبغي أن تكون سائدة في تلك المجتمعات، فهو يخاطب العقلاء الشرفاء قائلا: "حر ومذهب كل حر مذهبي" والتقدير: (أنا حر)، فحذف المسند إليه؛ لقصد الاختصار والتشويق، فالشاعر يستحضر القارئ الجيد لمعاني الشعر؛ ليوقفه علىٰ تلك الكلمة التي تعد بمثابة بيت القصيد، أو المعنىٰ الأم -كما يقال- "حر" التي جاءت منكرة؛ تفخيما وتقديرا لهذا الشاعر؛ مما ينبه إلىٰ إحساس المتكلم العميق بمدلول هذه الكلمة؛ ليدرك المخاطب مدىٰ الإحساس الذي أفرغه فيما سيأتي من كلمات ودلالات؛ لذا عليه أن يقرأ بقية هذا البيت في نفس واحد يطول؛ لبيان عزة نفس الشاعر وإبائه، فتأتي الصفات الحميدة الحسنة لهذا الرجل واحدة تلو الأخرىٰ؛ ليدل من أول وهلة علىٰ أن هذه الجملة مقدمة ومنطلقا حجاجيا مهما؛ لأنها تؤخذ علىٰ أنها مسلمات يقبل بها الجمهور، وهي متعلقة بالقضايا التي منها يكون الانطلاق، وتمثل هذه المقدمة واقعة حقيقية لا تقبل الدحض أو الشك[1]، ثم تأتي ألوان البلاغة بطريقة حجاجية رائعة؛ لتسهم بشدة في

(١)- ينظر: الحجاج أطره ومنطلقاته من خلال مصنف في الحجاج: الخطابة الجديدة، لبرلمان وتيتكان، عبدالله صولة/ ٣٠٨ دار المعارف.

إبراز صفات الرجل المهذب، فاختار كلمة "حر" دون غيرها؛ لتدل علىٰ الحرية المطلقة غير المقيدة، ونكرها بعد كلمة "كل"؛ لتفيد العموم والشمول، ثم عطف عليها كلمة "مذهب"؛ لتوحي بأن طريقه في الحياة هو الحرية التي لم يجدها في المجتمع الأمريكي حينها؛ حيث يستبعدون الأسْوَد ويحقرونه، وفي إضافة مذهب إلىٰ ضمير المتكلم؛ ما يدل علىٰ أن الشاعر وُلد حرا طليقا غير مقيد، واختص نفسه بمذهب منفرد هو الأصل في الحرية، وقد قدَّم المسند "مذهب" وهو خبر مقدم علىٰ المسند إليه "مذهبي" المبتدأ المؤخر؛ وهو معرفة للاختصاص، وفي قوله: (حر، كل حر) تكرار أفاد التقرير والتوكيد لهذه الحرية التي استهل بها النص.

ثم أتىٰ بالاستدلال المنطقي[1] لتلك الحرية (ما كنت بالغاوي ولا المتعصب)، وهذا من قبيل الفصل البلاغي بين الجمل (شبه كمال الاتصال)، فكأنه جواب لسؤال منطقي تقديره: ما أبرز مظاهر الحرية في نظرك؟ فكان الجواب (ما كنت بالغاوي ولا المتعصب)، فالشاعر يؤكد من خلال هذه الجملة كمال الحرية التي تكمن ذروتها في كون الشاعر إنسانا لا يتشدد لرأيه، ولا يضل غيره، وهذا التأكيد

(١)- وهذا ما عبر عنه علماء البلاغة بالمذهب الكلامي، وهو أن يورد المتكلم حجة للمطلوب لما يدعيه أهل الكلام، وهو أن تكون الحجة بعد تسليم المقدمات فيها مستلزمة للمطلوب، ولكن لا يشترط هنا الاستلزام العقلي بل ما هو أعم من ذلك، والمراد بكون الحجة علىٰ طريقة أهل الكلام: صحة أخذ المقدمات من المأتي به علىٰ صورة الدليل الاقتراني أو الاستثنائي لا وجود تلك الصورة بالفعل بل صحة وجودها من قوة الكلام في الجملة كاف كما يؤخذ من الأمثلة، واستشهدوا بقوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، وهذا إشارة لقياس استثنائي ذكر شرطيته وحذف منه الاستثنائية والمطلوب؛ لظهورهما، أي: لكن وجود الفساد باطل بالمشاهدة فبطل الملزوم وهو تعدد الآلهة، فاللازم وهو فساد السموات والأرض باطل؛ لأن المراد به خروجهما عن النظام الذي هما عليه، فكذا الملزوم، وهو تعدد الآلهة، وهذه الملازمة من المشهورات الصادقة التي يكتفىٰ بها في الخطابيات دون القطعيات المعتبرة في البرهنيات، أي: الأدلة المفيدة لليقين. للمزيد ينظر: (شروح التلخيص/ ٤/ ٣٦٩).

مفاد من النفي ودخول الباء علىٰ خبر كان في (بالغاوي)، فالشاعر يتميز بالحرية التي هي من صفات الرجل المثالي في عدم إضلاله لغيره، وعدم تعصبه لرأيه، ويعد هذا الفصل بين مفاهيم الجملتين أمرا دعا إليه الحجاج، وهي طريقة من الطرائق الانفصالية فيه(١)، فالحرية التي استفتح بها الشاعر تعد من الأمور العامة، وفي عدم تعصبه لرأيه وعدم إضلاله لغيره يعد من خصوصيات الحرية، وهذا الانتقال من العام إلىٰ الخاص فيه دلالة علىٰ حرص الشاعر علىٰ توظيف المواضع الذاتية التي يحتج بها(٢)، كما يومئ إلىٰ انتقال آخر علىٰ مستوىٰ العناصر المكونة للمقدمة؛ من حسن الافتتاح إلىٰ المقصد(٣).

ثم يواصل الشاعر الحديث عن تلك الصفات، فيظهر وظيفة أخرىٰ لهذا الاستهلال، وهي: استمالة المتلقي وتهيئته واستدراجه؛ ليقبل علىٰ الموضوع باهتمام وإصغاء:

إنِّـــي لأغْضَـــبُ للكـــريم ينُوشُـــهُ مَـن دُونَـهُ وَأَلُـومُ مَـنْ لَـمْ يَغْضَـبِ

لجأ الشاعر في سبيل إقناع المتلقي بفكرته إلىٰ ذكر محاسنه وصفاته القوية التي تبعث علىٰ الإعجاب والتقدير؛ ليؤكد حجته، وليبين أن كفته ومن ناصرهم أرجح من كفة غيرهم – وهذا هو الغرض الأساس من القصيدة– مستخدما في ذلك البنية الحجاجية البلاغية، حيث استهل البيت بهذا الأسلوب الخبري المؤكد بـ (إن واللام)، وغرضه البلاغي الوعيد، وفي إسناد التوكيد لضمير المتكلم (الياء) العائد

(١)– ينظر: الحجاج أطره ومنطلقاته / ٣٤٤.

(٢)– ينظر: الخطابة أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، محمد أبو زهرة/ ٣١،ط٢، دار الفكر العربي ١٩٨٠م.

(٣)– المقصد: أن يذكر المتكلم في صدر كلامه الموضوع الذي سيتناوله إجمالا من غير تفصيل؛ وذلك ليهيئ الأذهان لتلقيه، ويشعرهم برفق إلىٰ ما سيقوله.(الخطابة محمد أبو زهرة/ ١٠١).

إلىٰ الشاعر؛ دلالة صريحة علىٰ افتخار الشاعر واعتزازه بنفسه وأنفته، فهو يتوعد كل شخص يقلل من شأن مَنْ هو أكبر منه قدرا ومنزلة، وفي هذا الشطر استعارة تصريحية حيث شبه انتقاص اللئيم للكريم بالتناوش (وهو التناول باليد من قريب) بجامع الإصابة بالسوء في كلٍ، وهذا أمر من الأمور المتعارفة عند الرجال الكرماء الأصل، فيعد البيت من قبيل الحجج الجاهزة التي تكتسب قوتها من مصدرها، ومن مصادقة الناس عليها وتواترها(١).

وعند التأمل لهذا المحسن البديعي الذي يتمثل في أسلوب طباق السلب؛ الذي يوضح المعنىٰ ويؤكده، وهو مفاد -أيضا- من تكرار مادة (غ ض ب) بين الإثبات والنفي في(إِنِّي لأَغْضَبُ، مَنْ لَمْ يَغْضَبِ) -وهذا من عناصر الحجاج الأساسية-، فنجد إيقاع هذا الإثبات وإثراء موسيقاه دلاليا؛ يحدث أثرا عظيما في إثارة مشاعر السامعين، وقد أعقب الشاعر بهذا الاستدلال المنطقي في بيان علة الغضب قائلا:(لأَغْضَبُ للكريم يُنُوشُهُ مَنْ دُونَهُ)، فمن صفات الرجل المهذب أيضا أنه يغضب إذا عاب أحدٌ الكرام الشرفاء، بل تعدىٰ الأمر في كونه يلوم من لم يغضب لهم، وهذا نمط من أنماط الحجاج البلاغي، فيعد هذا الأسلوب أمرا لافتا للنظر؛ حيث القياس المضمر في القصيدة الذي يظهر بوضوح شديد، وقد اعتبر "أرسطو" القياس المضمر أساس الحجاج قائلا: "يبرهن كل الناس علىٰ إثبات ما باعتماد الشواهد أو المضمرات، ولا يوجد شيء خارج هذين المقومين"(٢)، والقياس المضمر قياس خطابي، يقوم علىٰ الرأي والاحتمال(٣)، ومستنبط من مقدمات

(١)- ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري/ ٦٥،ط١، دار الثقافة البيضاء ١٩٨٦.

(٢)- فن الخطابة، أرسطو/ ١٠٦، ترجمة عن اليونانية وعلق عليه وقدم له /عبدالرحمن بدوي،ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد ١٩٨٦.

(٣)- ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمرى/ ٧٧.

قليلة[1]، ويؤول حذف إحدىٰ مقدماته إلىٰ أنها "تكون ظاهرة معروفة جيدا، فلا حاجة إلىٰ ذكرها؛ لأن السامع يستطيع أن يضيفها بنفسه"[2]، ومن ثَمَّ ينتقل الشاعر لقضية عقلية منطقية حجاجية عامة في كونه يحب هؤلاء المحترمين المهذبين الذين يقدرون الآخرين حتىٰ وإن كانوا خصومهم، ولا يكره غير المهذبين، بل يشفق عليهم في رحمة:

وَأُحِـــبُّ كُـــلَّ مُهَـــذَّبٍ لـــوْ أَنَّـــه خَصْـمي وَأَرحـمُ كُـلَّ غَيـرِ مُهَـذَّبِ

استخدم الشاعر الفعل المضارع (وَأُحِـــبُّ)؛ ليدل علىٰ تجدد حدوث هذا الحب واستمراره لهؤلاء المهذبين الذين يعرفهم في وقته الحاضر أو مستقبلا، ولفظ (كل مهذب)؛ للعموم والشمول ورغبة في بث هذه القضية لسائر المجتمع، وهذا من قبيل الإيجاز بالحذف حيث حذف الموصوف، والتقدير: في كل شخص مهذب، ثم استخدم الشرط في (لو أنه خصمي)؛ لتأكيد هذا الحب، فمع أنه عدو إلا أن الشاعر يحبه طالما لا يمسه بسوء ويتعامل معه بأخلاق مهذبة، فهو مؤدب وقور يقدر الآخرين، وهو يحب المهذبين مهما اختلف معهم في الرأي، ولا يكره غير المهذبين، بل يستشعر لهم الرحمة، وبهذا يعطي المتلقي إحساسا بأن فكرة الشاعر فكرة تربوية خالصة، وليست دعوىٰ سياسية، واعتماد الحجاج علىٰ التقنيات الاستدلالية إنما هدفه "الإقناع"، وتلك استراتيجية تعتمدها الخطابات؛ لإحداث تغيرات في الأفكار أو توجيهها؛ أو لتحقيق أغراض بلاغية، فالحجة استلزمت نتيجة؛ لأنها خاضعة لمنطق اللغة، ويمكن الحصول علىٰ صيغ عديدة من خلال

(١)-فن الخطابة، أرسطو/ ٣٣.

(٢)- السابق/ ٣٣.

استخدام روابط حجاجية مختلفة[١]، مثل: (وَأُحِـــــــبُّ كُلَّ مُهَذَّبٍ (تفسير)، وقوله: لو أنه خصمي (شرط واستلزام)، وقوله: وَأَرحمُ كُلَّ غَيرِ مُهَذَّبٍ(تبرير)، وقوله: الحب لكل مهذب فيه شفقة علىٰ كل غير مهذب، فهو لا يحب الأذىٰ(استنتاج).

ويعلل الشاعر لذلك (الاستنتاج المنطقي) بهذه الصفات التي يجب أن يتحلىٰ بها كل شخص تأصلت فيه صفات الحرية بالبيت التالي:

يَـأْبَىٰ فـؤادي أنْ يميـلَ إلـىٰ الأذىٰ حُـبُّ الأذيـةِ مـن طِبـاعِ العَقْـرَبِ

هذا البيت حافل بأساليب البلاغة التي استخدمها الشاعر بطريقة حجاجية بارعة، حيث ختم الشاعر هذه الفكرة بهذا البيت الذي يعد بمثابة النتيجة للمقدمة، فالشاعر استخدم العديد من العلاقات الحجاجية التي تُبني وفق أنساق منطقية، وكان الاستدلال أحد هذه الأنساق التي يعتمدها الخطاب الحجاجي؛ ذلك أنه" إنجاز تسلسلات استنتاجية، داخل الخطاب، أي متواليات من الأقوال والجمل بعضها بمثابة الحجج، وبعضها الآخر بمثابة النتائج التي تستنتج منها"[٢]، ويتضح هذا من خلال ما استهل به الشاعر البيت بهذه الاستعارة المكنية التي تجسد المعنىٰ (يأبىٰ فؤادي)، فقد جعل الفؤاد إنسانا يأبىٰ ويرفض، فهو لا يحب الأذىٰ؛ لأنه رجل مهذب، وخصَّ الفؤاد دون القلب؛ ليعبر عن قوة الإدراك، فهو يشمل قوىٰ الإلهام الكامنة المجهولة الكنه والعمل، واستخدم الشاعر المصدر المؤول (أن يميل)؛ ليدل علىٰ تجدد الحدث في المستقبل، فهو يرفض الأذىٰ بشتىٰ صوره في الحال والاستقبال، وبين قوله:(يأبىٰ، ويميل) طباق يبرز مراد الشاعر للصفات الحسنة في

(١)- سلطة الكلام وقوة الكلمات، أبوبكر العزاوي/ ٢٤٣،ع٦٢-٦٣، منشورات وزارة الثقافة المغربية٢٠٠١م.

(٢)- السابق / ١٤٢.

سلوك الرجل المثالي، مستخدما الأفعال المضارعة التي تدل علىٰ هذا التجدد والاستمرار في رفض الأذىٰ مهما وقع عليه أذىٰ من غيره، وعلل لهذا الشطر بهذا الاستدلال المنطقي؛ ليظهر أثر الحجاج قائلا: (حُبُّ الأذيةِ من طِباعِ العَقْرَبِ)، فالأذىٰ من صفات المنافق المشابه للعقرب في الأذىٰ والضرر، وهي استعارة تصريحية؛ حيث شبه ما جبلت عليه العقرب من المبادرة إلىٰ الدفاع عن نفسها عند الشعور بالخطر بالحب والهوىٰ النفسي؛ بجامع الميل الفطري في كلَّ؛ ليوضح المقصد ويجلي الغاية الحجاجية.

وهذه الفكرة ما هي إلا دعوة إلىٰ الصلاح والأخلاق الفاضلة، فالشاعر يدعو إلىٰ التسامح؛ لأن الإيذاء من صفات المنافق، ثم يوضح الشاعر أنه قوي في نفسه، ولكنه يرىٰ أن النفس الكبيرة يكفيها وخز الضمير الذي يعانيه المسيء عقوبة كافية له، فيكفيه شعوره بالندم وتمنيه عدم الذنب، والمقام مقام توجيه وإرشاد وتصحيح لهذا المجتمع الفاسد سلوكه، وتنبيه علىٰ الخطأ فيما يعتقده المرء من الأمور الظاهرة، فكان لا بد من ذكر دليل إقناعي يعرفه جميع الناس يتمثل في قول الشاعر (حُبُّ الأذيةِ من طِباعِ العَقْرَبِ)؛ فهذه نتيجة للمقدمة، ومن المعلوم أن القضايا هي قوام منطق الاستدلال،واستنتاج قضية(نتيجة/ الصلاح والأخلاق للمجتمع المثالي)من قضيتين(مقدمتين/ رفض الأذىٰ، حب الأذىٰ من طبع العقرب)، بناء علىٰ قياس إحداهما علىٰ الأخرىٰ؛ لوجه شبه مشترك بينهما في تقرير هذا الاستنتاج ما هو إلا عملية استدلال منطقي بطريق غير مباشر، حيث تسمىٰ القضيتان المستدل منهما مقدمتين، تكون إحداهما كبرىٰ والأخرىٰ صغرىٰ، وأما القضية المستدلة، فتسمىٰ نتيجة[1]، فمن أسباب رفضه للأذىٰ أنه من طباع العقارب، وهذا التمثيل يعد

(١)- ينظر: الاستقراء والمنهج العلمي، محمود زيدان / ٢١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان.

آلية حجاجية إقناعية مؤثرة، كما أنه دليل علىٰ قدرة المحاجج الاستدلالية؛ مما يدل من أول وهلة علىٰ ثراء الحجاج في النص الشعري، حيث أجاد الشاعر في ترابط هذه الحجج فيما بينها وعلاقاتها بالنتائج التي أراد الشاعر أن يقود المتلقي إليها، وأن يقنعه بصحتها علَّنا حيث أوقفنا علىٰ بنية النص بتحديد المنطق الخفي الذي يحكم الأبيات.

ولعل إمعان النظر في طريقة صياغة هذه الجمل المتتالية، وترتيبها بهذا التسلسل، وترتبها له قيمة حجاجية أيضا؛ إذ تعتبر هذه الجمل الخبرية ابتدائية ألقيت إلىٰ متلق خالي الذهن، فاستغنت عن مؤكدات الحكم المخبر به، ويحدث ذلك تناسبا وتماسكا وترابطا مع مناسبة القصيدة؛ حيث كانت العنصرية علىٰ أشدها؛ لذا اهتم النقد القديم بتأنق بنية الاستهلال في النص؛ لأنه أول ما يقرع السمع، فيطمع السامع فيه إذا كان عذب اللفظ، حسن السبك، صحيح المعنىٰ[1]. فالشاعر ذكر حجته كليا في أول الأمر، ثم أخذ يعدد أجزاءها؛ ليحافظ علىٰ قوتها الحجاجية، ويعد كل جزء بمثابة دليل علىٰ دعواه[2]، وهذه الأجزاء تعد توسعا في عرض القضية ودليلا علىٰ صدق الدعوىٰ، فإن اجتمعت جميعها أكسبت القصيدة مصداقية، ويتجلىٰ هذا أكثر من خلال الأفكار الآتية.

❁❁❁❁❁

(١)- ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني/ ٤٢٨، ط٤، دار إحياء العلوم، بيروت/ ١٩٨٨م.

(٢)- ينظر: استراتيجيات الخطاب، عبدالهادي بن ظافر الشهري/ ٤٩٤.

الفكرة الثانية: (الرجل الفطن لا تخدعه المظاهر):

لِـــــيْ أَنْ أَرُدَّ مَسَـــــاءَةً بِمَسَـــــاءَةٍ ... لَـــوْ أَنَّنِـــي أَرْضَـــىٰ بِبَـــرْقٍ خُلَّـــبِ(١)

حَسْـــبُ المُسِـــيءِ شُـــعُورُهُ وَمَقَالُـــهُ ... فِـــي نَفْسِـــهِ: يَـــا لَيْتَنِـــي لَـــمْ أُذْنِـــبِ(٢)

أَنَـــا لا تُغَشِّـــنِي الطَّيَـــالِسُ والحُلَـــىٰ ... كَـــمْ فِـــي الطَّيَـــالِسِ مِـــنْ سَـــقِيمٍ أَجْـــرَبِ(٣)

عَيْنَـــاكَ مِـــنْ أَثْوَابِـــهِ فِـــي جَنَّـــةٍ ... وَيَـــدَاكَ مِـــنْ أَخْلَاقِـــهِ فِـــي سَبْسَـــبِ(٤)

وَإِذَا بَصُـــرْتَ بِـــهِ بَصُـــرْتَ بِأَشْـــمَطِ ... وَإِذَا تُحَدِّثَـــهُ تَكَشَّـــفَ عَـــنْ صَـــبِي(٥)

يُعَرِّض الشاعر في هذه الأبيات بالمجتمع الأمريكي الذي يحمل في أصوله رد الإساءة بالإساءة، وينتصر لنفسه وعرقه، ويعبر عن أخلاقهم السائدة الفاسدة، فكم وراء الظواهر من أمور خادعة، فالشاعر لا يغتر بالثياب، فكثيرا ما تكون وراء الثياب الفاخرة الأخلاق السيئة، ولا يخدع بالسن، فربما كان الرجل طاعنا في السن قد علاه المشيب، لكن عقله عقل صبي طائش.

---

(١)-مَسَاءَة: الإساءة والأذىٰ، والسين والواو والهمزة فليست من ذلك، إنما هي من باب القبح. تقول رجل أسوأ، أي قبيح، وامرأة سوآء، أي قبيحة، ببرق: لامع، الباء والراء والقاف أصلان تتفرع الفروع منهما: أحدهما لمعان الشي خلب: ليس وراءه مطر وخادع للبصر(مقاييس اللغة: مادة سوء، برق، خلب).

(٢)- حسب: يكفي،: "والأصل الثاني: الكفاية، تقول شيء حساب، أي كاف(مقاييس اللغة: مادة حسب)، المسئ: المخطئ.

(٣)-لا تغشني: لا تخدعني، الطيالس: مفرده طيلسان وهو نوع من الثياب يلبسه أشراف الناس الطاء، واللام والسين أصل صحيح، كأنه يدل علىٰ ملاسة (مقاييس اللغة: مادة: طلس)، أجرب: مرض جلدي: أي مشوه الجلد والمنظر.

(٤)-أثوابه: الشكل الجميل، سبسب: صحراء جرداء والجمع سباسب،: "من هذا الباب السبسب، وهي المفازة الواسعة"(مقاييس اللغة : مادة سب).

(٥)-الأشمط: من اختلط سواد شعره ببياض الشيب:" الشين والميم والطاء قياس صحيح يدل علىٰ الخلطة، من ذلك الشمط، وهو اختلاط الشيب بسواد الشباب"(مقاييس اللغة مادة: شمط).

لِـــيْ أَنْ أَرُدَّ مَسَـــاءَةَ بِمَسَـــاءَةٍ لَـــوْ أَنَّنِـــي أَرْضَـــىٰ بِبَـــرْقٍ خُلَّـــبِ

استهل الشاعر هذه الفكرة بهذا الأسلوب البلاغي الحجاجي، وهو التقديم وما يصنعه من جماليات في البناء النصي؛ حيث أفاد هنا "التخصيص"[1] في تقديمه الجار والمجرور(لي)؛ فيتحدث عن صفاته وأخلاقه التي يعتز بها، والتي ينبغي أن يحظىٰ بها كل إنسان، ويتمثل ذلك في عزة النفس وإباء الضيم، فينفي عن نفسه رد الإساءة بمثلها، مستخدما الاستدلال الشرطي(لَوْ أَنَّنِي أَرْضَىٰ بِبَرْقٍ خُلَـــبِّ)؛ لإقناع المخاطبين، فلو رددت واكتسبت نصرا، فهو نصر زائف لا يُرْضِي النفس الكبيرة العظيمة الفتية؛ لأنه نصر عابر لا قيمة له، وفي قوله: (إساءة بإساءة) مجاز مرسل علاقته السببية؛ قيمته البلاغية التأكيد والإيجاز، وهي من قبيل المشاكلة. ثم يصور الشاعر عدم رضاه عن هذا النصر في صورة الاستعارة التصريحية (ببرق خلب) حيث شبه النصر المزيف بالبرق الخادع بدون مطر، ثم يستخدم الشاعر طريقة القياس المضمر في البيت الآتي:

حَسْـبُ الْمُسِـيءِ شُـعُورُهُ وَمَقَالُـهُ فِي نَفْسِـهِ: يَا لَيْتَـنِي لَمْ أُذْنِـبِ

وهذا القياس من أساس الحجاج، حيث يثبت للقارئ بطريقة حجاجية أنه علىٰ حق، وأن هذا ما يحدث في الحقيقة، فحين لا ترد علىٰ من شتمك تجده يتمنىٰ بداخله أن ترد عليه حتىٰ يحفظ ماء وجهه أمام الناس، لكن لو تركته من غير رد يقوم بتأنيب نفسه، ويعض علىٰ يديه من كثرة الندم؛ حيث ينتقص نفسه أمام الحاضرين، وفي هذا المعنىٰ يقول الشافعي:

إذا نطـــقَ الســـفيهُ فـــلا تجبْـــهُ فخيـــرٌ مـــن إجابتـــهِ الســـكوتُ

فـــإنْ أجَبتَـــه فرَّجـــتَ عنْـــهُ وإنْ تركتَـــهُ كمـــدا يمـــوتُ

(١)- ذهب الدكتور أحمد مصطفىٰ المراغي، إلىٰ أن التخصيص من الأسباب الموجبة لتقديم المسند(ينظر: علوم البلاغة، المراغي/ ١٠٥).

وتأمل قول الشاعر:(شُعُورُهُ وَمَقَالُهُ)، وقوله:(فِي نَفْسِهِ)، وقوله: (يَا لَيْتَنِي لَمْ أُذْنِبِ) كل هذا يوحي بتقرير الحجج؛ مما يؤكد علىٰ عبقرية الشاعر في قوة المواجهة، وكثرة الأدلة والبراهين البسيطة من البيئة والواقع حتىٰ يلزم الخصم، ولا يدع له مجالا للقول، فكان الأسلوب الحجاجي البلاغي فيه إثارة العقل والوجدان عن طريق الدعوة إلىٰ التفكير والتأمل، وحسن الاستخدام والاستدلال، وقد جمع الشاعر من الأساليب البلاغية (النداء، والتمني، والنفي)، وهي تقنيات حجاجية تسهم بشكل كبير في سمات الأسلوب.

ثم عبَّر الشاعر بطريق التخصيص، فقدم المسند إليه علىٰ الخبر الفعلي المنفي:

أَنَــا لا تُغَشِّــني الطَّيــالِسُ والحُلَــىٰ كَــمْ فِـي الطَّيـالِسِ مِـنْ سَـقِيمٍ أَجْـرَبِ

فالشاعر لا تخدعه المظاهر، فهو لا يغتر بالثياب، فكثيرا ما تكون وراء الثياب الفاخرة أخلاق فاسدة، وقد تعددت الأساليب البلاغية عند الشاعر، وكثرت الصور البيانية في هذا البيت (لا تُغَشِّني الطَّيالِسُ)، فهي كناية عن الظواهر الجميلة؛ لتأكيد المعنىٰ، وهي من أهم آليات الحجاج البلاغية؛ لما تحققه من تقريب للمعنىٰ في نفوس المتلقين، ومن الروابط التي استخدمها الشاعر(كم الخبرية) التي تفيد الكثرة في هذا المجتمع الفاسد في (كَمْ فِي الطَّيالِسِ مِنْ سَقِيمٍ أَجْرَبِ)، وهي استعارة تصريحية؛ حيث شبه الإنسان الرديء صاحب الثوب الفاخر الفخم في تزينه به بالسقيم الأجرب المزين بالثوب الجميل، كذلك في الشطر كناية معبرة للمعنىٰ: عن عدم انخداعه بالمظهر الجميل إذا كان المخبر قبيحا سيئا، والشطر الثاني تعليل للشطر الأول وهو حجاج عقلي، فالشاعر يخاطب القارئ بالعقل، ويرشده لطريقه المستقيم بالفكر، ويرسم تلك الصفات المثالية بطريقة منطقية سلسلة عن طريق أساليب البلاغة يتقبلها الرجل السوي، وهذا بُعدٌ عقلي فكري حقيقي طابق البعد النطقي كما هو واضح في البيت.

ويستمر الشاعر في إبراز الصفات التي تخدع البصر، فحين تنظر للمخادع تراه من حيث الشكل جنة، ولكنه في الحقيقة كصحراء جرداء لا يأتي منها الخير، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنىٰ قائلا:

عَينَـــاكَ مِـــنْ أَثْوَابِـــهِ فِـــي جَنَّـــةٍ وَيَـــدَاكَ مِـــنْ أَخْلَاقِـــهِ فِـــي سَبْسَـــبِ

وهذا البيت تشبيه تمثيلي، حيث شبه حال الرجل الذي له منظر وليس له مخبر بحديقة غناء ليس لأشجارها ثمر، ووجه الشبه مركب، وهو المنظر المطمع في الفائدة مع المخبر المؤيس منها علىٰ عكس ما يظنه الرائي.

وكثرت الصور البيانية في هذا البيت (عَينَاكَ فِي جَنّـــــــــةٍ) كناية عن المتعة والجمال، و(يَدَاكَ فِي سَبْسَبِ) كناية عن الفراغ، فاستطاع الشاعر توظيف تلك الصور في تحقيق القصدية التي سعىٰ لتحقيقها وإيصالها إلىٰ المتلقي، فيتقبلها كما قصد الشاعر.

وَإِذَا بَصُـــرْتَ بِـــهِ بَصُـــرْتَ بِأَشْـــمُطِ وَإِذَا تُحَدِّثَـــهُ تَكَشَّـــفَ عَـــنْ صَـــبِى

افتتح الشاعر البيت بعتبة الروابط الحجاجية، وهو الأسلوب الشرطي بـ (إذا)، وهو شرط يؤذن بذكر جواب بعده، فإذا سمعه السامع ترقب ما سيأتي بعده، فعندما يسمعه يتمكن من نفسه كمال تمكن، كذلك كان الشاعر بارعا في استخدامه للمحسن البديعي (المقابلة) بين الشطرين (عَينَاكَ مِنْ أَثْوَابِهِ فِي جَنّـــةٍ)، و(وَيَدَاكَ مِنْ أَخْلَاقِهِ فِي سَبْسَبِ)، وهي ثلاثة معانٍ بثلاثة معانٍ؛ تضفي إلىٰ الأسلوب جمالا ورقة، وتبرز المعنىٰ المراد واضحا.

ومن ثمَّ كان للشرط دور مهم – فضلا عن التأكيد علىٰ الفكرة التي تُلح عليه– ؛حيث يبرز بلاغة الحجاج في هذا البيت من خلال ما يسمىٰ بالقياس الخطابي حيث

أدىٰ الشاعر الغرض المطلوب بمصداقية وبراعة تقوم علىٰ الاحتمال (تَكَشَّفَ عَنْ صَبِي) من ناحية، وعلىٰ الإضمار(بَصُرْتَ بِأَشْمُطِ) من ناحية أخرىٰ، فهو آلية من آليات الذهن البشري تقوم بالربط بين شيئين علىٰ أساس جملة من الخصائص المشتركة بينهما للوصول إلىٰ استنتاج ما؛ بناء علىٰ القياس القائم علىٰ التجربة التي ينطلق منها المتكلم؛ لتشكيل صورة استدلالية.

ولم يكتف الشاعر بهذا الوصف من خلال التشبيه التمثيلي فحسب، بل استخدم الكناية اللطيفة في تعبيره عن نفس المعنىٰ (وَإِذَا تُحَدِّثَهُ تَكَشَّفَ عَنْ صَبِي) كناية عن صغر عقله رغم كبر سِنَّه، فمن صفات الرجل النَّابه أنه لا يُخدع بالسن، فربما كان الرجل متقدما في السن، وقد ظهر الشيب في رأسه، لكن حينما تكلِّمه يظهر لك حقيقته، فتجد نفسك أمام عقل صبيٍ طائش، وهذا من الحجاج الإقناعي، وقد أحسن الشاعر التمثيل والاحتجاج؛ حيث وظَّف الشاعر الأساليب البلاغية في إقناع المتلقي من خلال ما يرسمه في ذهنه، فالوظيفة الإقناعية للبلاغة تجعل من التواصل معركة تستوجب لكسبها حيازة للإمكانات الفكرية للمتكلم: (الدليل، الحجة، العلامة، الأمارة، القياس، المحتمل، الاستدلال)، والعاطفية:(التحريك، التهييج، الانفعال، الأحاسيس، العواطف، الطبائع)، واللغوية:(الوضوح، الدقة، السلامة، الصور، الأساليب، الوجوه، الزخارف)؛ لذا فالبلاغة ليست جمالية للغة بقدر كونها فلسفة للتفكير، وثقافة المجتمع[1]

(١)- ينظر: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، رولان بارث/ ٧٠-٧١، ترجمة عمر أوكان، ط١، إفريقيا الشرق، المغرب ١٩٩٤م.

ومن هنا ظهر جليا أن البلاغة تمتلك دلالة مزدوجة: فهي أداة محاججة، ووسيلة تفكير، وتقنية للإقناع، أضف إلى ذلك كونها فن للقول، وجودة الحديث.

فالذي يريد الشاعر إبلاغه وإيصاله إلىٰ المتلقي أن يعيش حياة كريمة تتسم بالحرية والعزة والكرامة، وعبر عن هذا المعنىٰ انطلاقا من نموذج حسي (استعارة)، فتم التعبير عن المعنوي بالحسي المادي، وهذا يشكل أبلغ حجة، وأقوىٰ دليلا؛ لخدمة النتيجة المرجوة، فأعطىٰ الشاعر لكلامه هذه القوة الحجاجية العالية التي نجدها في القول الاستعاري، وهذا الشاهد الاستعاري يلتقي في التعبير عن هذا المعنىٰ مع أقوال استعارية أخرىٰ وردت قبله في القصيدة كما ذكرت.

وهذا يبين لنا الدور الذي أدَّته الاستعارات في جعل النص الشعري ذا قوة حجاجية عالية؛ مما حقق الغرض التواصلي بين المتكلم والسامع، فظهرت شخصية الشاعر وطبيعة السامع المستهدف؛ لأنَّ تحقق الغرض التواصلي متعلق بهما، ويكمن في مدىٰ مناسبة المتكلم بين المعطيات الحجاجية وظروف المقام عامة، ومدىٰ قدرته علىٰ استغلال هذه المعطيات؛ لإقناع المستمع خاصة، إضافة إلىٰ مدىٰ استثماره النواحي النفسية والجوانب الوجدانية من أجل التأثير والإقناع.

❁❁❁❁❁

الفكرة الثالثة: (التضحية من أجل الأصدقاء):

إِنَّـــيْ إِذَا نَـــزَلَ الَـــبلاءُ بِصَـــاحِبِيْ دَافَعْـــتُ عَنْـــهُ بِنَاجِـــذِي وَبِمِخْلَبِـــي[1]

وَشَـــدَدْتُ سَـــاعِدَهُ الضَـــعيفَ بسَـــاعِدِي وســـترتُ منكبَـــهُ العَـــريّ بِمنْكَبِـــي[2]

وَأَرَىٰ مَسَـــــاوِئَهُ كَـــــأَنِّي لا أَرَىٰ وَأَرَىٰ مَحَاسِـــنَهُ وَإِنْ لَـــمْ تُكْتَـــبِ[3]

وَأَلُـــومُ نَفْسِـــي قَبْلَـــهُ إِنْ أَخْطَـــأْ تُ وَإِذَا أَسَـــاءَ إِلَـــيَّ لَـــمْ أَتَعَتَّـــبِ[4]

مُتَقَـــرِّبٌ مِـــنْ صَـــاحِبِي فَـــإِذَا مَشَـــتْ فِـــيْ عَطْفِـــهِ الْغَلْـــوَاءُ لَـــمْ أَتَقَـــرَّبِ[5]

ترسم هذه الأبيات شخصية الشاعر الذاتية، والتي يرمز من خلالها إلىٰ صفات الرجل المثالي التي ينبغي أن تكون في كل شخص حر له كرامة وعِزة، وقد استعان الشاعر بالأساليب البلاغية الكثيرة؛ لدعم هذه الآليات الحجاجية، فللشاعر قدرة فائقة في التأثير والإقناع من خلال هذا التوظيف الرائع لتلك الوسائل البلاغية مراعيا السياق والمقام.

ومراعاة المقام تساعد علىٰ تحقيق القدرة الإقناعية للخطاب الحجاجي، فليس الحجاج "عملية حشد الحجج، وربط مفاصل الكلام، وتعليق بعضه ببعض فحسب؛ بل يعني كذلك جملة من الاختيارات الأخرىٰ علىٰ مستوىٰ المعجم، والتركيب، وأزمنة الأفعال، وصيغ الكلمات، وأنواع الصور، ومصادر التصوير...، واختيارات تراعي غاية الخطاب وتستجيب لعلاقة الشاعر بالمتلقي وتلائم وضع

---

(١)- نزل البلاء: وقعت المصائب والكوارث، بناجذي: الناب، بمخلبي: المخلب للطائر والسباع بمنزلة الظفر للإنسان(ينظر: مقاييس اللغة: مادة خلب).

(٢)- ساعده: ذراعه، منكبه: كتفه، العريّ: الظاهر.

(٣)- مساوئه: عيوبه

(٤)- لم أتعب: لا ألوم

(٥)- في عطفه: جانبه، الغلواء: الكبر، بالفتح: أَوَّلُ الشّبابِ. وبالضم الغُلَواءُ: الغُلُوّ (ينظر: معجم ديوان الأدب، الفارابي ٤/ ٦٥).

المتلقي ومقتضيات المقام"[1]؛ لذلك يتعين علىٰ الشاعر أن يختار الأوقات المناسبة، ويتفقد أحوال المتلقي، فيقصد ما يحبه ويجتنب ما يكرهه، فلكل مقام مقال، فالرجل المثالي الذي يطلبه الشاعر رجل يحافظ علىٰ الصديق، يدافع عنه بكل ما يملك من قوة، ويشد أزره، ويستر عيبه، ويعمي عنه مساوئه، وتكبر في عينه محاسنه، ولا يعاتبه إذا أساء، ولا يجفوه إلا إذا تكبر عليه، وأعرض عنه، وهز عطفه تيها.

إِنَّـــيْ إِذَا نَـــزَلَ الَـــبلاءُ بِصَـــاحِبِيْ دَافَعْـــتُ عَنْـــهُ بِنَاجِـــذِي وَبِمِخْلَبِـــي

ظهرت قوة الشاعر وصلابته في هذه الفكرة بوضوح شديد بعد أن كان يتسم بالرقة والعذوبة في أول النص؛ لأن المقام حتم عليه هذا العنف، فأتىٰ بأساليب وكلمات تؤكد هذا المعنىٰ، حيث استخدم التأكيد في أول البيت (إِنَّيْ)، ثم أداة الشرط (إِذَا)، ثم الاستعارة المكنية في (نَزَلَ البَلاءُ)، فقد جعل البلاء شيئا ماديا ينزل من السماء كالمطر، ولها أثر حجاجي عظيم، فمع كونها استعارة لغوية إلا أنها تعد استعارة حجاجية؛ لأنها تدخل ضمن الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم بقصد توجيه خطابه، وبقصد تحقيق أهدافه الحجاجية، والاستعارة الحجاجية هي النوع الأكثر انتشارا؛ لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم الخطابية والتواصلية، فتجدها في اللغة اليومية الدارجة عند أوساط الناس، ففي اعتقادهم أن الخير إذا كان من السماء، فكذلك البلاء أيضا من السماء.

ثم تأمل الأسلوب الخبري في (دَافَعْتُ عَنْهُ)، وغرضه التقرير، ثم الاستعارة المكنية في (دَافَعْتُ عَنْهُ بِنَاجِذِي وَبِمِخْلَبِي) حيث شبه نفسه بالسِّبَاعِ المفترسة، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه، وهي المخلب والنواجذ، واستعمال

(١)- الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلىٰ القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، سامية الدريدي/ ٨٨،ط١، عالم الكتب الحديث، أربد عمان الأردن ٢٠٠٨م .

هذا المعنىٰ من خلال الاستعارة، وهذه الكلمات (البَلاءُ، دَافَعْتُ، بِنَاجِذِي، وَبِمِخْلَبِي) تؤكد عنف الشاعر وقوته، وهي مفردات توحي بشكل أولي علىٰ سيطرة الفكرة علىٰ عقله وشعوره، فهو يؤكد علىٰ قوة دفاعه عن صديقه بكل ما أوتي من قوة، والوقوف معه في الشدائد.

وَشَـدَدتُ سَـاعِدَهُ الضَـعيفَ بسَـاعِدِي وســترتُ منكبَــهُ العَــرِيّ بِمنْكَبِــي

عطف هذا البيت علىٰ الذي قبله؛ ليكمل الشاعر بقية الصفات التي ينبغي أن تكون في هذا الرجل المثالي، فهو الذي يشد من أزره ويساعده، وقد أجاد الشاعر في استخدام أسلوب الكناية للتعبير عن هذا المعنىٰ (وَشَدَدتُ سَاعِدَهُ الضَعيفَ) كناية عن نصرته في حال ضعفه، و(سترتُ منكبَهُ العَريّ) كناية عن حفظ أسراره وعدم إذاعتها، ثم المحسن البديعي الذي أضفىٰ علىٰ المعنىٰ هذه الموسيقىٰ والجمال وجذب الأنظار الذي تمثل في الطباق الذي يبرز المعنىٰ ويوضحه في(سترت، العريّ).

وَأَرَىٰ مَسَــــاوِئَهُ كَــــأَنِّي لا أَرَىٰ وَأَرَىٰ مَحَاسِــــنَهُ وَإِنْ لَــــمْ تُكْتَــــبِ

وَأَلُــــومُ نَفْسِــــي قَبْلَــــهُ إِنْ أَخْطَــــأْ تُ وَإِذَا أَسَــــاءَ إِلَــــيَّ لَــــمْ أَتَعَتَّــــبِ

يصور الشاعر أرقىٰ أنواع الصداقة من نبل وعزة وشرف، في كونه يتغاضىٰ عن مساوئ صديقه، فيلوم نفسه إذا أخطأ في حقه، ولا يعاتب صديقه إذا أساء، عن طريق الاستعارة المكنية في (وَأَرَىٰ مَسَاوِئَهُ)، حيث جعل المساوئ شيئا ماديا يرىٰ، وصورة التشبيه بـ (كأن) التي هي أبلغ أدوات التشبيه؛ ليؤكد حقيقة داخلية إقناعية في شدة تمسكه وحبه لصديقه، فكأنه لا يرىٰ له مساوئ أبدا، بل الأعجب في كونه يتفانىٰ في هذا الحب الذي يكاد أن ينقرض، حيث يعظم من محاسن صديقة الصغيرة، فيجعلها عظيمة عن طريق الاستعارة المكنية أيضا في (وَأَرَىٰ مَحَاسِنَهُ)، فجعل المحاسن شيئا ماديا يرىٰ، والكناية في (وَإِنْ لَمْ تُكْتَبِ) كناية عن قلة

المحاسن وعدم ظهورها، ثم استخدم الشاعر المحسن البديعي؛ ليوضح المعنىٰ، ويؤكده في نفوس المتلقين عن طريق أسلوب الطباق في (مَسَاوِئَهُ، مَحَاسِنَهُ) و (وأَرَىٰ، وَلا أَرَىٰ).

ثم يؤكد الشاعر هذا التفاني والتهالك في حبه لصديقه، فحينما يخطئ في حقه يتوجه باللوم الشديد لنفسه مصورا هذا المعنىٰ في صورة الفعل المضارع الذي يدل علىٰ تكرار هذا اللوم مع كل خطأ يصدر عنه (وَأَلُومُ نَفْسِي قَبْلَهُ إِنْ أَخْطَأْتُ) كناية تُعبر عما يجيش بخاطره من كثرة اللوم الشديد لنفسه، ويؤكد هذا المعنىٰ بجملة أخرىٰ مستخدما أسلوب الشرط (وَإِذَا أَسَاءَ إِلَيَّ لَمْ أَتَعَتَّبِ) كناية عن التسامح والعفو الدائم، فهو ينفي اللوم من أصله بـ (لَمْ أَتَعَتَّبِ)؛ ليدل علىٰ عدم توجه أقل العتاب واللوم لصديقه بل يعاتب نفسه علىٰ تقصيره في حقه.

ثم يكشف الشاعر عن كرامته وعزة نفسه، فرغم هذا الحب الكبير إلا أنه يفارق صديقة في حالة واحدة حال كونه يتكبر ويتعالىٰ عليه:

مُتَقَـرِّبٌ مِـنْ صَـاحِبِي فَـإِذَا مَشَـتْ فِـيْ عَطْفِـهِ الْغَلْـوَاءُ لَـمْ أَتَقَـرَّبِ[1]

تأمل الأساليب البلاغية الحجاجية في هذا البيت من الصورة البيانية في (مَشَتْ فِيْ عَطْفِهِ الْغَلْوَاءُ) كناية عن التكبر، والاستعارة المكنية في (مشت الغلواء)، ثم انتقاله للمحسن البديعي ببراعة، فربط بين مطلع البيت وآخره في هذا الطباق (مُتَقَرِّبٌ، لَمْ أَتَقَرَّبِ) والذي يعد أساس فكرة البيت كبنية حجاجية، فهو يبتعد عن صديقه، فلا يقترب منه إذا دَبَّ بداخله شيء من الكبر وأعرض عنه وهز عطفه تيها، وهذا الشرط (فَإِذَا مَشَتْ فِيْ عَطْفِهِ الْغَلْوَاءُ) هو أساس عدم القرب، وهو من آليات الحجاج، فنجد أسلوب الحجاج عند الشاعر يقوم علىٰ منطق طبعي بلاغي، يسعىٰ إلىٰ الكشف عن الآليات التي يتم عبرها بناء الخطاب القائم علىٰ الإقناع والإمتاع،

(١)- عطفه: جانبه، والغلواء: التكبر.

ويتحدد في كونه حجاجا تغذّيه النظرية اللغوية، وهو يحاكي في قصيدته المحاكمة المنطقية ذات القدرة التأثيرية والكفاية التفاعلية القائمة علىٰ دحض حجة الخصم والتمكين لفكرته، فاستعمال الشاعر لصيغة (مُتَقَرِّبٌ مِنْ صَاحِبِي) بهذا الوزن ينقل الواقع الخارجي إلىٰ داخل الملفوظ محققا بذلك فعلا لغويا آخر هو وجوب القرب من صاحبه، وهذا مفاد من إضافة كلمة "صاحب" إلىٰ ضمير المتكلم(صَاحِبِي)؛ ممهدا بذلك لنجاح باقي حججه من خلال الشرط الذي يمنع هذا القرب، فيضع المتلقي في حالة إقناع بهذا الشرط، فيستسلم لرأي الشاعر، وهكذا تؤدي الأساليب البيانية وظيفتها في إقامة المحاجة بأسلوب الإلجاء، المرتكز بيانه علىٰ أسلوب الشرط، لدحض الشبهة، ودفع الاتهام، بقوي الحجة وصحيح البرهان.

هذه الفكرة فيها من الحجج المنطقية الكثير إلىٰ جانب الأساليب البلاغية التي تتوافق مع التفكير المنطقي لدىٰ الشاعر، فكثر استخدامه للأساليب البيانية؛ حيث لجأ إلىٰ قضايا ومؤثرات نفسية مثل العاطفة، والمعاني الإنسانية، فلا سبيل إلىٰ الإقناع في كثير من الأحيان-خاصة في غياب المنطق-دون إثارة، ومن ثمَّ لا مفر للحجاج من البلاغة؛ لأن معظم الأساليب البلاغية تتوفر علىٰ خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية ولإنجاز مقاصد حجاجية؛ لذا لم يبتعد الشاعر عن المنطق الحجاجي في إثبات قضيته والوصول لغرضه في القصيدة.

الفكرة الرابعة: فخر واعتزاز بالنفس

أَنَـا مِـنْ ضَـمِيري سَـاكِنٌ فِي مِعْقَـلِ أَنَـا مِـنْ خِلَالِـي سَـائِرٌ فِي مَوْكِـبِ[1]

فَـإِذَا رَآنِـيْ ذُو الغَبَـاوَةِ دُوْنَـهُ فَكَمَـا تَـرَىٰ فِـيْ الْمَـاءِ ظَـلَّ الْكَوْكَـبِ[2]

يصور الشاعر في هذه الفكرة الرجل صاحب الضمير الحي الذي يحفظه ضميره من الصغائر، ويكون كالهالة المضيئة تزيده بهجة وبهاء، وهذا إقناع تقدم فيه الغاية (إقناع) علىٰ الوسيلة(اللغة)، وتحدد الأولىٰ طبيعة الثانية وشكلها حسب المقامات والأحوال، ولتأكيد هذه المقدمة جاء وظيفة الحجاج؛ لإقامة الدليل بالحجة والبرهان علىٰ ذلك عن طريق التقديم؛ ليشعر المخاطب بأنه عزيز النفس، صاحب الطلعة البهية، فعرَّف المسند إليه بضمير التكلم؛ لأن المقام يقتضي هذا؛ إذ هو يفتخر بنفسه، وضمير التكلم فيه من الإشعار بالاعتداد بالنفس ما يتناسب مع مقام الفخر، وقدم المسند إليه(أَنَا)؛ لإرادة التخصيص، وقيده بالجار والمجرور (من ضميري)؛ كناية عن يقظة ضميره في كونه في حصن منيع يمنعه من الهوية، فيفتخر ويغالي بنفسه، ثم كرر المسند إليه معرفا بضمير التكلم (أَنَا منْ خِلَالِي)؛ ليتميز المسند إليه أكمل تمييز؛ لتكون الفائدة في الإخبار أتم وأعم بهذا الأسلوب التقريري الخبري، بالإضافة إلىٰ التصوير(سَائِرٌ فِي مَوْكِبِ)، وهذا من الخطاب الإقناعي الشفوي، وهذه هي غاية الحجاج، ووظيفة ذكر المسند إليه في ضوء الحجاج بأسلوب القصر؛ لدفع المظانّ، حيث يتوهم القارئ أنه ذليل، فجاء البيت الآتي؛ ليرفع هذا التوهم، فيدل علىٰ عزة الشاعر وافتخاره بنفسه:

فَـإِذَا رَآنِـيْ ذُو الغَبَـاوَةِ دُوْنَـهُ فَكَمَـا تَـرَىٰ فِـيْ الْمَـاءِ ظَـلَّ الْكَوْكَـبِ

هكذا تتضافر الأساليب البلاغية؛ لإبراز الجانب الحجاجي، ففي هذا البيت تشبيه تمثيلي، حيث يفخر الشاعر بنفسه، فهو صاحب ضمير حي يقظ يحفظه عن

---

(١)-خلالي: صفاتي

(٢)- ذو الغباوة: غبي فلان غباوة، إذا كان قليل الفطنة(مقاييس اللغة، مادة: غبي).

الصغائر، وإذا كان من الناس من يظنه أنه أقل منه، فهو مخطئ وغبي يشبه من يرىٰ ظل الكوكب حقيقة وإنما رأىٰ صورته في الماء.

تلك هي الصفات التي يطلبها الشاعر في الرجل المثالي التي يجب أن يتحلىٰ بها، ومن ثمَّ وظَّف الشاعر أساليب البلاغة كهذه الصورة التشبيهية التمثيلية (فَكَمَا تَرَىٰ فِيْ الْمَاءِ ظَلَّ الْكَوْكَبِ)؛ لتؤدي إلىٰ جانب الوظيفة الجمالية وظيفة إقناعية استدلالية، ومن هنا يتبين أن معظم الأساليب البلاغية تتوفر علىٰ خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية؛ ولإنجاز مقاصد حجاجية[1]؛ مما جعل الخطاب الحجاجي موجها إلىٰ العقل والقلب معا؛ لأن البلاغة لا تصل إلىٰ الإقناع إلا بتوفر الحجج، ولكن بشرط كونها حججا عقلية تزيل الشك وتحقق الإقناع، حيث وظَّف الشاعر هذه الصورة ببراعة شديدة؛ لاقناع المتلقي، فإذا كان في الناس من يظنه أقل منه، فهو ظن مزعوم صاحبه غبي، يشبه من يرىٰ ظل الكوكب من الماء فيصيبه أسفل منه، وهو لم ير الكوكب حقيقة، وإنما رأىٰ ظله، فيلاحظ عند الشاعر تقنية التكرار: مثل تكرار أداة الشرط (إذا)، والمسند إليه (أنا)، ومن ثَمَّ يكون الحجاج قد منح القصيدة منطقها الداخلي، ورسم للنص استراتيجية معينة بها يتقدم، وعليها يسير.

❁❁❁❁❁

(١)- ينظر: التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صابر الحباشة/ ٥٠، ط١، صفحات للطباعة والنشر، سورية ٢٠٠٨م.

المبحث الثاني

الأساليب البلاغية وعلاقتها بالروابط الحجاجية في القصيدة

الخطاب الحجاجي يوظف البرهان والحوار بغرض الإقناع والتأثير، فهو الركيزة الأساسية في إيصال الأفكار، وتحقيق المقاصد بين المتكلم والمتلقي، ونجده يتضمن كل وسائل الإثارة والإقناع والتحاور، وظهر هذا جليا في تلك القصيدة من خلال الروابط والأدوات والأساليب البلاغية، حيث ارتبط الحجاج بالبلاغة ارتباطا كبيرا، وكل منهما يكون في خدمة الآخر؛ فالبلاغة تبرز الدلالات المتنوعة وتداعياتها المختلفة، والحجاج يرسم أبعاد الشخصيات وسلوكها، وانفعالاتها، ومواقفها الدفاعية عن نفسها بالحجج والبراهين؛ فيكتمل بناء القصيدة منسجما علىٰ الطريقة التي يريدها الشاعر.

كما أن الحجاج محكوم بغاية أخلاقية متمثلة في الصحة والخطأ الأمر الذي يعني أن هناك مرجعية علمية للحجاج تكمن في أربعة أحكام لا بد من توافرها في العملية الحجاجية وهي: حُكم الإحاطة؛ أي أن يقدم طرفا الحجاج معلومات دقيقة وصحيحة مدعمة بالحجة والبرهان، وأن يعرضا براهين واستدلالات تُحيط بالقضية المتنازع والمختلف عليها، وحُكم الصدق الذي يعني أن يسعىٰ طرفا الحجاج إلىٰ الوصول إلىٰ إقناع صحيح يرتبط بالحقيقة الموضوعية؛ وحُكم الوضوح؛ بمعنىٰ ضرورة تقديم حُجج واضحة لا تقبل التأويل ولا تحتمل الغموض، وحكم السداد الذي يكفل للعملية الحجاجية تحقيق نتائج سليمة وصائبة(١).

والخطاب الشعري كغيره من الخطابات اللغوية الأخرىٰ لا يخلو من هذه الآلية الإقناعية، فالشاعر يهدف إلىٰ إقناع المتلقي والتأثير فيه عن طريق الإيجاز الذي هو

(١)- ينظر: الحجاج في المقام المدرسي، كونيليا فون راد- صكوجي،١٤ ،١٥، ط١، منشورات كلية الآداب تونس٢٠٠٣م.

حد البلاغة العربية، ثم يؤدي السياق دوره ومناسبة نظم القصيدة والظروف الاجتماعية تبلور الدرس البلاغي الحجاجي، فيتمكن المتلقي من تأويله.

واستطاع الشاعر من خلال تلك القصيدة أن يكشف عن بناء الخطاب الشعري الحجاجي، ومكوناته، وآلياته عبر ألوان البلاغة التي تبرز الدلالات المتنوعة وتداعياتها المختلفة يتضح ذلك فيما وظفه الشاعر من أدوات لغوية وبلاغية وحجاجية وسمت هذا النص الشعري بوسوم خطابية تشيع فيها التعابير الدالة علىٰ عنف الخطاب الحجاجي الذي يتساوق بالضرورة مع إحساسه العميق بما كان يسكنه من إحساس بالقهر، وما يريد الوصول إليه من الحرية.

فالناظر في هذه القصيدة يجد أنها تجربة ذات خصوصية إبداعية كبيرة ومميزة؛ حيث إنها جسدت الصراع البنيوي الذي عاشته الثقافة العربية في حِقبة تاريخية مشحونة عقائديا، وسياسيا، واجتماعيا، والانقسامات الكبرىٰ، وتفاقمت الإشكاليات الثقافية؛ لذا أحسن الشاعر في استخدام الأساليب البلاغية وآليات الحجاج؛ ليسهم في إقناع المتلقي بما يقول، فالشاعر لديه فكرة يُلِحُ عليها.

ومن ثمَّ يسعىٰ الحجاج إلىٰ تغيير وضع معين، أو تدعيم آخر، أو اتخاذ موقف تجاه قضية ما[1]؛ فإنه يدفع المخاطبين إلىٰ تبني موقف واضح وخيار وحيد؛ مما يعني أن إحداث الإقناع يستوجب بالضرورة تغييرا يستند إلىٰ مسوغات وأدلة، كما أنه يسعىٰ إلىٰ تحقيق استجابات في نفوس المخاطبين؛ لتوليد قوة داعمة لمضمون الخطاب الحجاجي.

والقصيدة تجربة اجتماعية صادقة، ومن المعلوم أن الثقافة ليست مجموع نصوص ثابتة، ولكنها أيضا مجموع الوظائف التي تؤديها هذه النصوص في الحياة

(١)- ينظر: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة ، محمد سالم ولد محمد الأمين/ ٣٢.

الاجتماعية، والحجاج يمثل مجالا معرفيا تدَّعي علوم الخطابة والبلاغة والمنطق امتلاكه في صلب مشاغلها وصميم مقولاتها، وأن كل علم منها ينازع العلوم الأخرىٰ في وصايته علىٰ الحجاج، ويقصد بالحجاج النظام التعبيري الذي يستند إلىٰ جملة من المبادئ والآليات الناظمة للدفاع عن قضية ما، وتجليّها، وإثباتها، والبرهنة عليها، وكما هو معلوم أن بنية الحجاج النظرية تقوم علىٰ عدة أركان هي: طرفا الحجاج، والقضية المتنازع عليها، وخطاب الحجاج، والإقناع، وجمهور الحجاج (المخاطبون والمتلقون)؛ وكي يحدث التأثير والإقناع والإمتاع والجمال الفني وخاصة في النص الشعري لا بد من الاعتماد علىٰ الأساليب البلاغية.

فكان لعلوم البلاغة الدور الكبير في إبراز أهمية الحجاج أثناء التخاطب؛ ذلك أنها ترتكز علىٰ جانبين اثنين في الخطاب هما: البيان، والحجاج؛ لغاية إقناع المستمع، كما تكمن أهمية الوسائل البلاغية في "تحريك وجدان المتلقي والفعل فيه، فإذا انضافت تلك الجمالية إلىٰ حجج متنوعة، وعلاقات حجاجية تربط بدقة أجزاء الكلام، وتصل بين أقسامه أمكن للمتكلم تحقيق غايته من الخطاب؛ أي قيادة المتلقي إلىٰ فكرة ما، أو رأي معين، ومن ثَمَّ توجيه سلوكه الوجهة التي تريدها له؛ أي إن الحجاج لا غنىٰ له عن الجمال، فالجمال يرفد العملية الإقناعية وييسر علىٰ المتكلم ما يرومه من نفاذ إلىٰ عوالم المتلقي الفكرية والشعورية والفعل فيها"[1]، فاعتماد الشاعر علىٰ المجاز والجناس والطباق والتورية، وغيرها من وجوه البلاغة أكسبت كلامه جمالا ورقة ساعد علىٰ الإقناع والتأثير .

ومن هنا لا يستطيع الحجاج أن يستغني عن البلاغة؛ فالوسائل البلاغية تنمي قدرة الشاعر علىٰ الإقناع، كما تساعد الأساليب البلاغية علىٰ توجيه سلوك المتلقي

(١)-الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلىٰ القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، سامية الدريدي/ ١٢٠، ط١، عالم الكتب الحديث، أربد عمان الأردن ٢٠٠٨م .

عن طريق استمالته؛ فهي تعين المتكلم علىٰ ولوج عالم المتلقي الشعوري والفكري، فعندما يستعمل الشاعر الاستعارة مثلا، فإن ذلك يؤثر علىٰ المتلقي ويقنعه بحججه، فالاستعارة الشعرية تتميز بالقدرة علىٰ الفعل في المتلقي؛ لأنها تزيد الكلام رونقا وسحرا، والشاعر أثبت هذا جيدا في استخدامه لأساليب البلاغة التي أضفت علىٰ أبياته الشعرية حسنا ورونقا، وزادتها إقناعا.

وقد أكثر الشاعر من أسلوب التشبيه في قصيدته، والتشبيه في حقيقته أن يماثل بين المشبه والمشبه به، فيجعل المتلقي يعقد مقارنة بينهما ويحاول معرفة وجه الشبه بينهما، فإن أجاد الشاعر في ذلك أسهم في إقناع المتلقي بما يريد؛ ذلك أن التشبيه "يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما، فأحسن التشبيه ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفراداهما فيه، حتىٰ يدني بهما إلىٰ حال الاتحاد"[1]، وقد أجاد الشاعر في توظيف التشبيه حتىٰ يقرب الصورة إلىٰ المتلقي، فيتصور حالة الشاعر الذاتية، ويشعر بما يعانيه، وبناء عليه يقنعه بما يرمي إليه؛ مما يدل دلالة واضحة علىٰ وجود علاقة متينة بين كل من الخطاب البلاغي والحجاج، في كون الحجاج هو الوسيلة التي يصل بها الخطاب إلىٰ المتلقي؛ وذلك لإقناع الجمهور والتأثير فيه، وما يقتضيه ذلك من وضوح ومحسنات وإبانة وإظهار، فالنص الشعري يكون أكثر تميزا عند اعتماده علىٰ الخطاب الحجاجي البلاغي، فنجد الشاعر قد عبَّر عن الصراع الذي عاشه بطريقة فلسفية منطقية.

كذلك كانت الكناية لها دورها البارز في إظهار الصورة، فهي أسلوب بلاغي يسهم في تعميق الفكرة، ويضفي علىٰ المعنىٰ جمالا ورونقا يؤثر علىٰ النفس، "إنها واد من أودية المبدعين وغاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه، وصفت قريحته،

(١)- نقد الشعر، قدامة بن جعفر/ ١٢٤.

وطريق جميل من طرق التعبير الفني يلجأ إليها الأدباء؛ للإفصاح عما يدور بخلدهم من المعاني...، وهي وسيلة قوية من وسائل التأثير والإقناع"[1].

ولقد وظَّف الشاعر هذا الرافد الإقناعي المهم في قصيدته بأفضل ما يكون، فدور الكناية يكمن في إضافة معنىٰ آخر؛ حيث تجعل المعنوي في شكل محسوس واضح، فتعطي المتلقي الحقيقة مصحوبة بالدليل والحجة؛ لأنها تجعل المتلقي يبحث عن معناها الضمني(المكني عنه) ويكتشفه بنفسه، وهذا واضح في كل كناية في القصيدة.

وتعتبر المقابلة والطباق من أبرز أساليب البلاغة في القصيدة، ويعد هذا أسلوبا بلاغيا هاما، ورافدا من روافد الحجاج التي تساعد علىٰ الإقناع، وهو من المحسنات البديعية التي تضفي علىٰ الكلام جمالا وحسنا، وتعد كذلك حجة متوازية بين المتضادات، فهي تقنية إقناعية، ومن هنا أضفت تلك المحسنات البديعية علىٰ المعنىٰ قوة، وأكسبته جرسا موسيقيا يستميل الأذن؛ فتستلذ بسماعها، وكان لها أثر حجاجي بالغ الأهمية.

ومن هنا نصل لنتيجة لا شك فيها، وهي أن الحجاج مصطلح يمكن تفعيله في الشعر شريطة ألا يحيد عما يسعىٰ إليه الشعر؛ وذلك بألا تطغىٰ الآليات الإقناعية في الشعر علىٰ الآليات التخييلية التي هي أساسه ومحوره، وخير شاهد ما فعله الشاعر؛ حيث أجاد استعمال الحجاج ببراعة شديدة في القصيدة دون أن يفقد الشعر الجانب الفني، والتصوير والخيال.

فالعلاقة قوية جدا بين ما يهدف إليه الدرس البلاغي بوسائله وما يهدف إليه الحجاج من التأثير في المتلقي، فالمتكلم يجعل المتلقي صاحب دور

(١)- اللسانيات وتطبيقاتها علىٰ الخطاب الشعري، رابح بوحوش/ ١٨٤، دار العلوم، عناية الجزائر ٢٠٠٦م.

في فهم النص وإنتاجه، والصورة من أهم الوسائل المعينة علىٰ ذلك، فليست متعة للشكل فحسب، ولا زخرفا فنيا؛ بل هي وسيلة الإقناع وأداة الاتصال والإفهام؛ فهي ذات سلطة حجاجية قوية من خلال استرعاء الانتباه للمعنىٰ المراد إيصاله عن طريق التصوير، ويلمح عبدالقاهر إلىٰ أهمية الصورة قائلا: "إنما الشعر صناعة؛ وضرب من النسج وجنس من التصوير"(١).

وللصورة أهميتها في الحجاج كما قرر ذلك أحد الباحثين: "إن الصور تلعب دورين؛ خارجي وداخلي؛ يتمثل دورها الخارجي في تسهيل عملية الحجاج؛ فهي تشد الانتباه من خلال خرق المعتاد؛ فتلائم بين الأفكار والمستمع، وأما دورها الداخلي؛ فيتجلىٰ في دخولها هي نفسها في صلب الحجاج إذا لم يكن من الممكن القول بأن الحجة هي نفسها مجرد صورة كلٍ أو بعضٍ"(٢).

وهنا ما يسمىٰ بحجاجية الوصف، حيث يوظَّف الشاعر الآليات التي تساعده علىٰ الإقناع، وذلك باتباع الأساليب الحجاجية وطرائق التعبير المتنوعة التي تلائم الحالة الحجاجية والمقام الذي هو فيه، ومن أهم هذه الطرق التعبيرية: حجاجية الوصف؛ حيث إبراز وإثبات ملامح الموصوف سواء أكان شخصية أم غيرها، وللحجاج دوره المهم في ذلك من خلال مجموعة من الأدلة والبراهين التي تعمل علىٰ إيضاح هذه الشخصية، وتوظيفه كأداة للإمتاع والإقناع.

وعلى هذا يمكن القول: إن وظيفة الحجاج في القصيدة: الإبانة، وإقامة الدليل والبرهان، وإثبات ما تمس الحاجة إلىٰ إثباته، فالمجتمع الأمريكي الذي تسود فيه التفرقة العنصرية هو الذي أوحىٰ إلىٰ أبي ماضي بتحديد الصفات الإنسانية للرجل الذي ينبغي أن يُحترم، فكانت عاطفة الشاعر صادقة تتمثل في عاطفة الحب للمهذب

(١)- دلائل الإعجاز/ ٥٠٨.

(٢)- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، محمد العمري/ ٣٤، ط٢، أفريقيا الشرق ٢٠١٢م.

والكراهية للمخادع، ومن المعلوم أن الخطابات الحجاجية تسود في الحقول والميادين التي يحكمها النزاع وتطغىٰ عليها المجادلة وتسيطر عليها الخصومة(١)، وهي تهدف إلىٰ تحقيق الإقناع العلمي اتكاء علىٰ البراهين المؤيدة، والقصد المعلن، والاستدلال الواضح، والأفكار المترابطة الخالية من المغالطات والأكاذيب، فالقصيدة تجربة شعورية صادقة عاشها الشاعر بنفسه؛ مقدما المعلومات الصادقة والحجج والأدلة والبراهين، وقد اتسم أسلوب الشاعر بسهولة الألفاظ، ووضوح العبارة، واستخدام الصور والمحسنات من غير تكلف، فأبدع في قصيدته التي أثبتت ببراعة العلاقة القوية بين البلاغة العربية والحجاج.

❁❁❁❁❁

(١)- ينظر: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلىٰ القرن الثاني للهجرة: بنيته وأساليبه، سامية الدريدي/ ٢٤، ط١، عالم الكتب الحديث، الأردن ٢٠٠٨م.

الخاتمـــــــــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف المرسلين وبعد:

ففي نهاية المطاف لهذه الرحلة الماتعة مع عالم النص الشعري في ضوء المنهج الحجاجي؛ حيث تتوسد الآليات الفلسفية الحجاجية إنتاج النصوص وتلقّيها وفق براهين العقل والمنطق، وتقوم علىٰ استدراج الذهن البشري؛ لتقبل الحجج بما يتوافق مع مبادئ المنطق.

ومن خلال هذه الدراسة توصلت إلى أهم نتائج البحث وتتلخص في الآتي:

- حرص الشاعر في صوره البلاغية الحجاجية أن تكون من عناصر البيئة التي يعيش فيها؛ ليتمكن من الحجاج والإقناع، فهي تجربة شعورية صادقة عاشها الشاعر بنفسه.
- تحمل القصيدة في طياتها طابعًا حجاجيًا أراد به الشاعر إقناع المخاطبين بفكرته، ويزيد من فعاليته الاستدلالية سعيًا للتأثير في المتلقي وتغيير موقفه تجاه قضية ما.
- تضافرت الصور التشبيهية مع عناصر أخرىٰ ذات أبعاد حجاجية؛ لتوكيد المعنىٰ، ومنها بعض المحسنات البديعية التي جاءت عفو الخاطر.
- لوحظ غلبة الصورة البيانية من تشبيه، واستعارة، وكناية علىٰ البناء التركيبي؛ ربما لكون هذا أقرب لتصوير المشاهد والتأثير في نفس المتلقي؛ ليقر بما يريده الشاعر، وهذا أساس العمل الحجاجي.
- لجأ الشاعر لما يمكن تسميته بـ (الموجهات الحجاجية) تلك العبارات التي يمكن أن تحمل دلالات ضمنية، ومعاني خفية، تساعد الشاعر في بلوغ هدفه، وهي عبارات مرتبطة بالسياق الذي تدور في فلكه القصيدة بشكل عام.

- تبين أن النص الشعري الحجاجي نص متناغم مترابط، وكما يكون الحجاج في النثر، فإنه يكون أيضا في الشعر، فهو قادر علىٰ إقناع المتلقي بالحجة والعاطفة.

التوصيات:

- لاتزال المكتبة العربية في احتياج إلىٰ الاستزادة من المراجع والمصادر، والرسائل العلمية المتنوعة (ماجستير ودكتوراه) التي تعنىٰ بدراسة الحجاج في النصوص الشعرية.
- إبراز معالم التلاقي بين البلاغة العربية والدراسات اللسانية، وتطبيق ذلك في ضوء تراثنا اللغوي.

وبعد ، فهذا عملي وجهدي المتواضع، فإن وفقت فمن الله وحده، وله الحمد والمنّة، وإلا فمن نفسي والشيطان، وحسبي أنني اجتهدت وبذلت ما في وسعي، وأرجو من الله تعالىٰ العفو والمغفرة، وصلِّ اللهم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم تسليما كثيرا.

والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية أدبية، عبدالهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، مارس٢٠٠٤م.
- الاستقراء والمنهج العلمي، محمود زيدان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م.
- أنماط الجملة الشرطية في الأحاديث النبوية- صحيح البخاري نموذجًا، أ/ بو عبد الله السعيد، رسالة(ماجستير)، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري - الجزائر، ٢٠١٢م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ط٤، دار إحياء العلوم، بيروت/ ١٩٨٨م.
- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، محمد العمري/ ٣٤، ط٢، أفريقيا الشرق ٢٠١٢م.
- بلاغة الحجـــاج النبـــوي في صحيح مسلم (رسالة دكتوراه) مقدمة من الباحث / عبدالمحسن محمود منصور، بكلية اللغة العربية بالمنوفية/ ٢٠١٤م، وما بعدها.
- البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ.
- التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صابر الحباشة، ط١، صفحات للطباعة والنشر، سورية ٢٠٠٨م.
- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني(٨١٦ه)، ط/ دار الكتاب العرب- بيروت- ١٤٠٥ه، ط/ ١، تح: إبراهيم الأبياري.

- الحجاج أطره ومنطلقاته من خلال مصنف في الحجاج: الخطابة الجديدة، لبرلمان وتيتكان، عبدالله صولة، دار المعارف.
- الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلىٰ القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، ط١، عالم الكتب الحديث، أربد عمان الأردن ٢٠٠٨م.
- الحجاج في المقام المدرسي، كونيليا فون راد-صكوجي، ط١، منشورات كلية الآداب تونس٢٠٠٣م.
- الحجاج مفهومه ومجالاته [الحجاج حدود وتعريفات]، من المقدمة، تقديم: د/ حافظ إسماعيل علوي، ط/ عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، ط/ ١، ١٤٣١ه-٢٠١٠م.
- الخطابة أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، محمد أبو زهرة، ط٢، دار الفكر العربي ١٩٨٠م.
- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني ، تعليق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- الرسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.
- سلطة الكلام وقوة الكلمات، أبوبكر العزاوي/ ،ع٦٢-٦٣، منشورات وزارة الثقافة المغربية٢٠٠١م.
- شروح التلخيص ، ط١، دار البصائر٢٠٠٨م.
- علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»، محمد مصطفىٰ المراغي ط١ .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق(ت٤٥٦ه)، ط/ دار الجيل، بيروت -لبنان، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد.

- فن الخطابة، أرسطو، ترجمة عن اليونانية وعلق عليه وقدم له / عبدالرحمن بدوي، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد ١٩٨٦.
- في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري،ط١، دار الثقافة البيضاء ١٩٨٦.
- قراءة جديدة للبلاغة القديمة، رولان بارث/ ٧٠-٧١، ترجمة عمر أوكان، ط١، إفريقيا الشرق، المغرب ١٩٩٤م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علىٰ، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.
- اللسانيات وتطبيقاتها علىٰ الخطاب الشعري، رابح بوحوش، دار العلوم، عناية الجزائر ٢٠٠٦م.
- مجمع البلاغة، للراغب الأصفهاني، ط/ مكتبة الأقصىٰ- عمان-الأردن، ١٤٠٦ه-١٩٨٦م، تح: د/ عمر عبد الرحمن الساريس.
- المشتقات ودلالاتها في اللغة العربية –دراسة دلالية في القرآن الكريم، د/ محسن محمد قطب، ط/ مؤسسة حورس الدولية- الإسكندرية، ط٢، ١٠١٠م.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم ولد محمد الأمين.
- نقد الشعر، قدامة بن جعفر، مطبعة الجوائب – قسطنطينية، ط١، ١٣٠٢.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	٢١٩
المقدمة	٢٢٣
تمهيد	٢٢٦
المحور الأول: مفهوم الحجاج في اللغة والاصطلاح)	٢٢٦
المحور الثاني: ترجمة الشاعر	٢٣٠
المبحث الأول:(الأساليب البلاغية والروابط الحجاجية في القصيدة)	٢٣٢
المبحث الثاني:(أثر الروابط الحجاجية الأساليب البلاغية في القصيدة)	٢٥٦
الخاتمة	٢٦٣
المصادر والمراجع	٢٦٥
فهرس الموضوعات	٢٦٨